الفصل الرابع

إعجاز المبالغة في القرآن الكريم وخصائصها

(١) الإعجاز اللغوي والفقهي ·

(٢) الخصائص العامة للمبالغة في القرآن الكريم ·

(١) الإعجاز اللغوي والفقهي .

أولاً : الإعجاز اللغوي

١- معنى المبالغة في بعض أسماء الله تعالى

٢- وصف النفس البشرية .

٣- وصف الشيطان .

٤- وصف النار وأهلها .

١ – معنى المبالغة

في بعض أسماء الله ــ تعالى ــ الحسنى وصفاته

أُقدِّم في هذا المبحث معنى المبالغةَ في أسماء الله الحسنى ، لا سيما أن بعـض العلمـاء أنكروا المبالغة في أسماء الله فضلاً عن إنكارهم إياها في القرآن الكريم .

ومـن هنا آثرت أن أُفرد الأسماء الحسنى في مبحث مستقل أدلـل فيه على ظهور المبالغة في هذه الأسماء وبيان إعجازها سواء في صفات الجمال أو في صفات الجلال .

مفهوم المبالغة في أسماء الله الحسنى :

من العلماء الذين أثبتوا " المبالغة " في أسماء الله الحسنى : الكشّاف ، وأبـو السـعود ، والبيضاوي ، وأبو حيَّان ، وابن قيم الجوزية ، والراغب الأصـفهاني ، والعكـبري ، والصـاوي ، وابـن منظور ، وابن عاشور ، والألوسي وغيرهم ، وكل'' نقلتُ عنه ما يُعضِّد هذا الاتجاه .

بَـيْد أن بعض العلماء ذهب إلى أن صفات الله التي هي صيغة مبالغة كلهـا مجاز ؛ إذ هي موضوعة للمبالغة ، ولا مبالغة فيها ، لأن المبالغة هي أن تثبـت للشـيء أكثر مما له ، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال لا يمكـن المـبالغة فيها ، والمبالغة ـ أيضًا ـ تكون في صفاتٍ تقبل الزيادة والنقصان ، وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك (١) .

وللـردّ على هؤلاء أقول : أولاً : مَنْ الذي قال : إن المبالغة هي أن تثبت للشيء أكثر مما له ؟!! ..هذا ما يروجه من لا دراية له بفن المبالغة.

كمـا قـالوا : إنها كذب .. إنها تهويل .. إنها لا تليق أن تكون فنـًا قرآنـيـًا .. إلـى آخر هذه الأقوال التي لا تستند إلى دليلٍ أو ذوق . وإنما المقصـود بالمـبالغة القوة والكثرة والزيادة والشدة والعمق .. الخ تلك التي تتـبدّى للمتلقي من خلال الوصول بالمعنى إلى أقصى غاياته ، وهي ـ كما هـو معـروف لكل باحث بلاغي ـ فن'' مسطور في كل كتب البلاغة ـ قديمهـا وحديثها . وقد صدَّرت هذا المبحث بهذه الجمهرة من العلماء الذين أثبـتوا المـبالغة فـي القرآن الكريم ؛ بل في أسماء الله الحسنى على تباين مذاهـبهم ، واخـتلاف مشـاربهم ، فأين الدليل لأولئك المنكرين وأين قوة احتكامهم نقلاً أو عقلاً ؟!!

ثانيًا : صفات الله نعم هي متناهية الكمال ، ولا تقبل الزيادة والنقصان ولكن المبالغة في أسماء الله الحسنى كما أجاب " أبو حيان " في " البحر "

---

(١) انظـر أسماء الله الحسنى ـ دراسة في البنية والدلالة ـ د . أحمد مختار عمر ـ الهامش رقـم ٧ ص ٩٤

عـن هـذا إنمـا تأتـي من جهة تكثير المتعلق لا من جهة تكرير وقـوع **الوصف** ، فقد قال في تفسير قوله تعالى : ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعـاً ثم استوى إلى السماءِ فسـواهن سبع سموات وهو **بكـل شيء عليم**﴾ (١) وهو بصدد شرح " عليم " { المبالغة بأحد أمرين إما بالنسبة إلى تكريـر وقـوع الوصـف سواء اتحد متعلقه أم تكثر وإما بالنسبة إلى **تكثير المتعلق لا تكثير الوصف** ومن هذا الثاني **المبالغة في صفات الله تعالى** ، لأن علمه تعالى واحد لا تكثير فيه ، فلما تعلق علمه تعالى بالجميع كلية وجزئية دقـيقة ، وجلـيلة ، معدومـة ، وموجودة ، وصف نفسه تعالى بالصفة التي دلـت على المبالغة ، وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم ؛ لأن تقـدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء ، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجيمع الأشياء } (٢) .

وقـال ــ أيضًا ــ بصدد شرحه لقول الله تعالى ﴿ فتاب عليه إنه هو **التوَّاب الرحيم**﴾ (٣) { بولغ ــ أيضـاً ــ في الصفتين (التواب الرحيم) .. فجاء " الـتوَّاب " على وزن فعَّال ، و " الرحيم " على وزن فعيل وهما من الأمثلة التـي صـيغت **للمبالغة** هذا كله ترغيب من الله تعالى للعبد في التـوبة ، والـرجوع إلى الطاعة وإطماع في عفوه تعالى ، وإحسـانه لمن تاب إليه " التوَّاب " من أسمائه تعالى وهو الكثير القبول لتوبة العبد ، أو الكثير الإعانة عليها } (٤) .

وَبيِّن ’’ أن منشأ المبالغة في اسم الله تعالى " التواب " يعود إلى المتعلق وهو كثرة قبوله لتوبة العبد ، أو كثرة الإعانة عليها ، وهذا هو مرجع المبالغة في الأسـماء الحسـنى ، فـلا غضاضة ولا نكارة حينئذٍ من ورود المبالغة في أسمائه الحسنى وهذا هو الذي عليه الجمهور ولا عـبرة لمن شذَّ عن هذا !

---

(١) البقرة / ٢٩

(٢) البحر المحيط ١ / ٢٨٣

(٣) البقرة /٣٧

(٤) البحر المحيط ١ / ٣٢٠

بيان أثر المبالغة

أولاً: في صفات الجمال مثل " الحفيظ " و" القدير "

١- " الحفيظ "

" الحفيظ " صيغة مبالغة من الحافظ ، ومن معانيه : العناية ، والرعاية ، والتعاهد ، والإحصاء (١) كما في قوله تعالى ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظٌ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (٢) أي رقيب على أحوالهم وأعمالهم ومحصيها عليهم ثم يحاسبهم عليها .

واسمه ـ تعالى ـ " الحفيظ " من الأسماء التي تبعث في النفس الطمأنينة ، وتغمر القلب هدوءًا وسكينة ، فلا تخش ضياعًا لحسنةٍ عملتها ، ولا فوتًا لبر صنعته ولا نسيانًا لمعروفٍ قدَّمته ، ولا تخش ـ كذلك ـ هلاكًا لجارحة ولا فقدًا لدين ، ولا نفس ، ولا نسل ، ولا مال ؛ لأنه هو " الحفيظ " وكل ما فاتك من شيء فأنت مأجور عليه ، ولم تفقده ولم يضع منك ؛ لأنك تؤجر عليه ، وقد أحصاه الله باسمه " الحفيظ " .

فهو الذي أحاط عباده بكمال علمه ، وعنايته ، ولم يفته شيء في ملكه وملكوته ولم يغفل عن تدبير شيء من أمور خلقه .

فما من ذرة في صخرة أو في السموات أو في الأرض إلا وهو يعلم مكانها ، ومكوناتها ، وخصائصها ، وهو ـ سبحانه ـ يقوم بحفظها وصيانتها وفصلها عما يفسدها أو لا يتفق مع جنسها وخاصيتها .

---

(١) قال ابن منظور : { الحفيظ : من صفات الله ـ عز وجل ـ لا يعزبُ عن حفظه الأشياء كلها مثقالُ ذرة في السموات والأرض ، وقد حفظ على خلقه وعباده ما يعملون من خيرٍ أو شر ، وقد حفظ السموات والأرض بقدرته ، ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم . وفي التنزيل العزيز : " بل هو قرآن'' مجيد'' في لوحٍ محفوظ " . قال أبو إسحق : أي القرآن في لوحٍ محفوظ وهو أم الكتاب عند الله عز وجل .. والحفظة : الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بني آدم من الملائكة ، وهم الحافظون وفي التنزيل : " وإن عليكم لحافظين " .. و المحافظة : المواظبة على الأمر . وفي التنزيل العزيز : " حافظوا على الصلوات " أي صلُّوها في أوقاتها ، الأزهري : أي واظبوا على إقامتها في مواقيتها ويقال : حافظ على الأمر والعمل وثابر عليه وحارص وبارك إذا داوم عليه . وحفظت الشيء حفظًا أي حرسته وحفظته أيضًا بمعنى استظهرته .. والحفيظ : المحافظ ، ومنه قوله تعالى : " وما أنا عليكم بحفيظ " ويُقال : احتفظ بهذا الشيء أي احفظه } اللسان مادة (ح . ف . ظ)

(٢) الشورى/ ٦

فالحفيظ إذن هو البالغ الحفظ ، القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء فهذا الاسم المقدَّس يوحي بكمال الذات والصفات والأفعال .

وقـد تنوعت أقوال العلماء في فهم معنى هذا الاسم الجليل ، وعبَّر كلٌّ منهم عـنه بأسلوبه الخاص على قدر علمه القاصر ونظره المحدود ، وعلى قدر صلته بربه عز وجل . فقد قيل : إن معناه : هو الذي حفظ أولياءه من مسالك الضـلال بتوفيقه إلى مسالك الهدى ، وصان خواطرهم عن السياحة في غير ميادين الذكـر والفكر ، وحماهم في حال المحنة من الشكوى ، وفي حال النعمة من البلوى .

وقـيل : هو الذي حفظ أولياءه عن ملاحظة الأغيار ، وصان ظاهرهم عن موافقة الفجار . أي صان نظرهم وفكرهم عن ملاحظـة غير الله عز وجل ، فلـم يسـألوا أحدًا سواه ، وصان أعمالهم الظاهرة كلها عن الرياء والسمعة وصُنع أهل النفاق [١] .

ومـن هنا فإن من معاني هذا الاسم العظيم أنه لا يعزُبُ عن حفظه الأشياء كلها من مثقال ذرة في السموات أو في الأرض ومن حفظه تعالى :

(١) حفظ السموات والأرض :

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [٢]

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ [٣]

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ [٤]

---

(١) انظر : أسماء الله الحسنى د . محمد بكر إسماعيل / ١٥٤ ، ١٥٥

(٢) البقرة / ٢٥٥

(٣) الأنبياء / ٣٢

(٤) الصافات / ٦ ، ٧

(٢) حفظ الخلق :

قال تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ (١)

﴿ له معقبات" من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (٢)

﴿ إِن كلُّ نفسٍ لَمـَّا عليها حَافِظ ﴾ (٣)

(٣) حفظ الرَّسول ـ صلى الله عليه وسلم :

قـال تعالى : ﴿ واللَّهُ يَعْصِمُكَ من النَّاسِ ﴾ (٤) والعصمة أثر" من آثار حفظ الله .

(٤) حفظ المنهج :

قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قرآنٌ مجيد" * في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ (٥)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نزلنا الذِّكر وإِنَّا له لَحَافِظُون ﴾ (٩)

وحـظ العـبد من هذا الاسم الشريف " الحفيظ " أن يحفظ ما أمر الله تعالى حفظه ومنه :

(١) أن يحفظ أوامر الله وشرعه كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسـلم : " احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تُجاهك ...... " (٧) .

---

(١) الأنعام /٦١

(٢) الرعد / ١١

(٣) الطارق / ٤

(٤) المائدة / ٦٧

(٥) البروج / ٢١ ، ٢٢

(٦) الحجر/ ٩

(٧) رواه الترمذي في سننه

(٢) أن يحفظ حدود الله كما قال تعالى : ﴿ وَالحافِظُون لِحُدودِ اللَّه ﴾ (١)

(٣) أن يحفظ الصلاة :

قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا على الصَّلوات والصَّلاة الوُسْطى ﴾ (٢).

(٤) أن يحفظ الفرج ويغض البصر :

قال تعالى : ﴿ قُل لِلمؤمنين يَغُضوا من أَبْصارهم وَيَحْفَظوا فُرُوجَهم ﴾ (٣).

٢- " القدير " (٤)

القدير ــ القادر ــ المقتدر : ثلاثة من أسماء الله ــ عز وجل ــ ورد ذكرها في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ بلَى إنَّه على كُلِّ شيء قديرٌ ﴾ (٥).

وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ علي أن يُحيي المَوْتَى ﴾ (٦). وقال جل ثناؤه : ﴿ وكان الله على كُلِّ شيء مُقْتَدِرًا ﴾ (٧)

والمعنى أنه لا يعجزه شيء ؛ بل يستتب له ما يريد على ما يريد ؛ لأن أفعاله قد ظهرت ، ولا يظهر الفعل اختيارًا إلا من قادر ، كما لا يظهر إلا من حي عالم ، وقدرته ــ سبحانه ــ تامة ، لا يمتنع عليه شيء ، ولا يحتجز بمنعة ولا قوة ، فهو قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحصى كل

---

(١) التوبة / ١١٢

(٢) البقرة / ٢٣٨

(٣) النور / ٣٠

(٤) قال ابن منظور : { القدير والقادر : من صفات الله عز وجل ، يكونان من القدرة ، ويكونان من التقدير . وقوله تعالى : " إن الله على كل شيء قدير " من القدرة ، فالله عز وجل على كل شيء قدير ، والله سبحانه مُقدِّر كل شيء وقاضيه . ابن الأثير : في أسماء الله تعالى القادر والمقتدر والقدير ، فالقادر اسم فاعل من قدَر يقدرُ ، والقدير فعيلٌ منه ، وهو المبالغة ، والمقتدر مُفتعِل من اقتدر وهو أبلغ } اللسان مادة (ق . د . ر) .

(٥) الأحقاف / ٣٣

(٦) القيامة /٤٠

(٧) الكهف / ٤٥

شـــيء عـــددًا ، وأحسن كل شيء خلــقا وإبداعــًا ، وأحكم كل شيء تدبيرًا وتصريفــًا ، وأقام كل ما خلق ، وبرأ ، وذرأ على العدل المطلق والقسطاس المستقيم (١) .

وهـــو القادر المطلق الذي خلق كل موجود خلقــًا متفرِّدًا به ، مستغنيــًا فيه عـــن معاونة غيره ، أما العبد فله قدرة على الجملة لكنها ناقصة إذ لا يتناول إلا بعـــض الممكنات ، ولا يصلح للاختراع أو الإبداع ؛ لأن الله ــ تعالى ــ هو المُبدع لمقدورات العبد (٢) .

مراتب التقدير :

التقدير الذي يجري على الإنسان إنما يجري على مراتب خمس :

أولاً : تقديـــر المقادير قبل خلق السموات والأرض : عن عبد الله بن عمـــرو بـــن العاص قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقـــــول : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمســـين ألف سنة وعرشه على الماء " (٣) ويقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِـــن مُصِـــيبَةٍ فِي الأَرضِ ولا في أَنفُسِكم إلا في كِتابٍ من قبـــــل أن نَّبرَأها ﴾ (٤)

ثانـــيًا : تقديـــر الرب تبارك وتعالى شقاوة العباد وسعادتهم وأرزاقهم وآجـــالهم وأعمالهم قبل خلقهم ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنـــه قـــال : كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة ، فنكس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال : " ما منكم من أحد ، ما من نفسٍ منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة " قال : فقال : " من كان مـــن أهـــل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة " ثم قـــرأ :

---

(١) انظر : أسماء الله الحسنى ــ د . محمد بكر إسماعيل / ٢٨٠

(٢) انظر : الجامع لأسماء الله الحسنى / ٢٢٧

(٣) رواه مسلم

(٤) الحديد / ٢٢

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (١)

وفي لفظ : " اعملوا فكل ” ميسَّر ” لما خلق له " .

ثالثًا : الجنين في بطن أمه ، وهو تقدير شقاوته ، وسعادته ، ورزقه ، وأجله ، وعمله ، وسائر ما يلقاه ، عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : وهو الصادق المصدوق : " إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملَك فينفخ فيه الروح ويُؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد ، فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها " متفق عليه .

رابعًا : التقدير ليلة القدر : قال الله تعالى : ﴿ حم~ والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يُفرق كل أمر حكيم * أمرًا من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ (٢) وهي ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٣) .

خامسًا : التقدير اليومي : قال الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّموات والأرضِ كلَّ يَوْمٍ هُو فيَ شأن ﴾ (٤) .

ولعلك أدركت من خلال تلك القسمة مدى إحاطة علم الله بالمخلوقات ، وعظم الدقة المتناهية في التقدير أضف إلى ذلك التتابع الدقيق في قدر الله الذي يلاحق الإنسان ويحوطه في كل وقت دون أن يعوقه عن أداء

(١) الليل/ ٥ – ١٠

(٢) الدخان/ ١ – ٥

(٣) القدر/ ١

(٤) الرحمن/ ٢٩

الرسالة التكليفية التي أُمر بها .

من مظاهر قدرة الله تعالى :

١- لكمال قدرته يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويجعل المؤمن مؤمنًا ، والكافر كافرًا ، والبر برًا ، والفاجر فاجرًا ، وهو الذي جعل إبراهيم وآله يدعون الله ويهدون بأمره ، وجعل فرعون وقومه أئمة يدعون إلى النار .

٢- لكمال قدرته لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء أن يعلمه إياه ، ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسه من لغوب ولا يعجزه أحد'' من خلقه ، ولا يفوته ؛ بل هو من قبضته أين كان ، فإن فرَّ منه ، فإنما يطوي المراحل في يديه .

٣- ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون إذنه إليه لكمال عظمته وعلوه ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولم تسعه أرضه ولا سمواته ، ولم تحط به مخلوقاته ، بل هو العالي على كل شيء وهو بكل شيء محيط ، ولاتنفذ كلماته ولا تُبدَّل ، ولو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر أمدادًا ، وأشجار الأرض أقلامًا ما نفدت كلمات الله .

٤- إنه سبحانه لا يعاقب أحدًا بغير فعله ، ولا يعاقبه على فعل غيره ، ولا يعاقبه ما لا يقدر على فعله ، ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه . وأنه حكيم'' كريم ، جواد ، ماجد ، محسن'' ، ودود ، صبور'' ، شكور ، يطاع فيشكر ويُعصى فيغفر ، ولا أحد أحب إليه العذر منه .

والمقصود أنه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوف'' بكل صفة كمال ، منزه'' عن كل نقص ٍ ، له كل ثناء ٍ حسن ، ولا يصدر عنه إلا كل فعل ٍ جميل ٍ ، ولا يُسمَّى إلا بأحسن الأسماء ، ولا يُثنى عليه إلا بأكمل الثناء ، وهو المحمود المحبوبُ المعظَّم ، ذو الجلال والإكرام

على كل ما قدَّره وخلقه ، وعلى ما أمر به شرعه (١) .

ثانيًا : من صفات الجلال : " الجبـَّار " (٢)

الجبَّار : اسم من أسماء الله تعالى ، ورد ذكره في القرآن الكريم : قال تعالى : ﴿ العزيزُ الجبَّارُ المتكبرُ ﴾ (٣) . وهو من أبنية المبالغة .

ويحتمل الاسم ــ في حق الله تعالى ــ عدة معانٍ ، أرجحها :

١- العالي الذي لا يُنال من العزِّ والامتناع ، ومنه نخلة جَبَّارة : إذا طالت ، وعلت ، وقصُرت الأيدي عن أن تنال أعلاها ؛ فهو العظيم الذي تُحار في كُنه جلاله ، وجماله ، وكماله العقول ، ولا تحيط بمعاني في صفاته البصائر ، ولا ترتقي إلى معرفة ذاته الأفهام .

٢- من الجبروت والتكبر ، قال الرازي : وإذا كان الجبروت والتكبر في حق الخلق مذموم فهو ممدوح في حق الله تعالى فوق كل الجبابرة ، فلا يجري عليه حكم حاكم ، وإنما الجميع منقادون له (٤) ، فهو الذي أجبر الخلق على ما أراد ، وحملهم عليه طوعًا وكرهًا ، فلا يقع في ملكه إلا ما يريد ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .

---

(١) انظر الجامع لأسماء الله الحسنى / ٢٢٧ – ٢٢٩

(٢) قال ابن منظور : { الجبَّار : الله عزَّ اسمه القاهرُ خلقَه على ما أراد من أمرٍ ونهي . ابن الأنباري : الجبار في صفة الله ــ عز وجل ــ الذي لا يُنال ، ومنه جبَّار النخل . الفرَّاء : لم أسمع فعَّالاً من أفعل إلا في حرفين وهو جبَّار من أجبرتَ ، ودرَّاك من أدركتُ ، قال الأزهري : جعل جبَّارًا في صفة الله تعالى أو في صفة العباد من الإجبار ، وهو القهر والإكراه لا من جبر .. وقيل : الجبَّار العالي فوق خلقه ، وفعَّال من أبنية المبالغة ، ومنه قولهم : نخلة جبَّارة ، وهي العظيمة التي تفوت يد المتناول . وفي حديث أبي هريرة : يا أمة الجبَّار ! إنما أضافها إلى الجبَّار دون باقي أسماء الله تعالى لاختصاص الحال التي كانت عليها من إظهار العطر والبخور والتباهي والتبختر في المشي .. وتجبَّر الرجُل : تكبَّر وفي الحديث : سبحان ذي الجبروت والملكوت ، هو فعلوت من الجبر والقهر . وفي الحديث الآخر : ثم يكون مُلك `` وجبروت ، أي عتو وقهر . اللحياني : الجبَّار المتكبر عن عبادة الله تعالى ؛ ومنه قوله تعالى : " ولم يكن جبارًا عصيًا " مريم /١٤ .. والجبرُ : خلاف الكسر ، جبَر العظمَ ، والفقيرَ ، واليتيمَ يَجبُره جبْرًا وجُبُورًا وجِبارة } اللسان مادة (ج . ب . ر) .

(٣) الحشر / ٢٣ ، وفي الحديث في ذكر النار : حتى يضع الجبَّار فيها قدمه ، قال ابن الأثير : المشهور في تأويله أن المراد بالجبَّار : الله تعالى ، ويشهد له في قوله في الحديث الآخر : حتى يضع فيها رب العزة قدمه . انظر القول الأسنى / ٩٥

(٤) انظر أسماء الله الحسنى ــ دراسة في البنية والدلالة / ٤٨

٣- المصلح لأمور الخلق ، المُظهر للدين الحق ، المُيسِّر لكل عسير ، الجابر لكل كسير من قولهم : جبر الكسر إذا أصلحه ، وجبر الفقير إذا أنعشه .

فهو سبحانه جل شأنه الجبَّار في عليائه ، يُجير ولا يُجار عليه ، وهو الغالب على أمره نواصي العباد بيده ، والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه وهو الجبَّار الذي أجبر الخلق جميعًا على تقديسه ، والتسبيح بحمده ، وحملهم على ذلك طوعًا وكرهًا .

فمن سبَّحه وقدَّسه طوعًا فهو مُجبر على ذلك من حيث إنه ما وفق لذلك إلا بقدرته جل شأنه ، فمنه التوفيق ، ومنه الأجر على ما وفق العباد إليه ، والأمر كله منه وإليه (١) .

---

(١) انظر أسماء الله الحُسنى د . محمد بكر إسماعيل / ٤٦

٢- وصف النفس البشرية

صفات النفس التي وردت في القرآن الكريم عن طريق المبالغة إحدى عشرة صفة ، أبنتُ منها ثلاثًا في مبحث " صيغ المبالغة " في الفصل الأول وهي : البخل والقنوط والكفر ، وإليك الثماني الباقية ، تجدها هنا في منظومة شاملة عبَّرت عن حقيقة النفس من خلال المبالغة . فهي تعطي بُعدًا كاملاً عن طبيعة النفس في جزعها ، وجهلها ، وظلمها ، وتعجلها ، وفخرها ، وكنودها ، ومنعها ، وهلعها . ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (١)

قال عز من قائل : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائكةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُوحي فَقَعُوا له سَاجدين ﴾ (٢)

فالإنسان في التصور الإسلامي هو هذان العنصران المختلفان ، مترابطين ممتزجين في كيانٍ واحدٍ : قبضته من طين الأرض ، ونفخة من روح الله .

قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية : الأوكسجين والإيدروجين والكربون والكلسيوم والفوسفور ... الخ . وتتمثل فيها رغائب الأرض ، وضرورات الأرض .

ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية ، وقوة الوعي المدركة ، وقدرة النفس المريدة . وهذان معًا يكوِّنان الإنسان .

فهو ليس قبضة طين خالصة ، تخضع للضرورات القاهرة من طعامٍ وشرابٍ وجنسٍ .. الخ ، خضوعًا لا تملك نفسها منه ، ولا تختار لنفسها سلوكًا معينًا إزاء هذه الضرورات .

وليس إشراقة روح خالصة ، طليقة من القيود ، ترفرف حيث تشاء ، لا تخضع لضرورة ، ولا تتأثر بقيود الزمان والمكان ، والوجود والفناء ، وثقلة الجسم المنجذب إلى الطين ولكنه مزيج من الضرورة القاهرة والإشراقة الطليقة من القيود .

---

(١) فاطر/ ١٤

(٢) ص/ ٧١ ، ٧٢

مـــزيج قد يغلب عليه في بعض الأحيان أحد عنصريه ، فتظهر الضرورة الغلـــيظة ، وعـــتامة الطين ، أو تظهر النورانية الشفيفة وخفة الشعاع . ولكنه أبدًا غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر في أية لحظة من اللحظات (١) .

إن في طبيعة تكوين الإنسان ، إذن ، استعدادًا لفعل كل من الخير والشر ، استعدادًا لاتباع أهوائه وشهواته البدنية ، والاستغراق في الاستمتاع بملذاته الحسية ورغباته الدنيوية ، واستعدادًا للتسامي إلى أفق الفضيلـــة والتقوى والمثل الإنسانية العليا ، والعمل الصالح ، وما يحققه ذلك من سكينة نفسية وسعادة روحية . ومن الطبعي أن تتضمن طبيعة الإنسان وقوع الصراع بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرذيلة ، بين طاعة الله ومعصيته . وإن الاختبار الحقيقي للإنسان في هذه الحياة هو ما تتجه إليه إرادته ، وما يقع علـــيه اختياره هل سيختار طريق الخير أم طريق الشر ؟ ، طريق طاعة الله أم معصيته ؟ هل سينساق الإنسان وراء أهوائه وشهواته ومتع الحياة الدنـــيوية ، ويغفل عن ذكر الله ، وينسى اليوم الآخر ، أم هل سيتحكم في أهوائـــه وشـــهواته ويقـــوم بتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ، ومطالبه الروحية ؟

وحينما يختار الإنسان الملذات الدنيوية ، وينساق وراء أهوائه وشهواته ، وينســـى ربه واليوم الآخر ، إنما يصبح في معيشته أشبه بالحيوان ؛ بل أضل ؛ لأنه لم يستخدم عقله والذي ميَّزه الله تعالى به على الحيوان .

قـــال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَـــبُ أَنَّ أَكْـــثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (٢)

والإنســـان الذي يعيش هذا النوع من المعيشة يكون غير ناضج الشخصية ويكـــون أشبه بالطفل الذي لا يهمه إلا إشباع حاجاته ورغباته ، ولم تقو إرادته بعد ، ولم يتعلم بعد كيف يتحكم في أهوائه وشهـــواته ، فينســـــاق

---

(١) انظر منهج الفن الإسلامي / ٣٣

(٢) الفرقان / ٤٣ ، ٤٤

وراء إشباعها ، ويصبح خاضعـًا لتوجيه " نفسه الأمارة بالسوء " (١) .

وقـد جـاءت صيغ المبالغة في وصف النفس البشرية في القرآن الكريم مُبيِّنة نوازع النفس المختلفة ، وانفعالاتها المتعددة راصدةً تلك المبالغات التـي تضعنا أمام حقيقة الإنسان ! من هو ذاك الكائن الذي حار في كنهه العلماء وعجز عن إدراك سره الباحثون ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (٢) .

---

(١) انظـر : القرآن وعلم النفس ـ د . محمد عثمان نجاتي ـ دار الشروق ـ ط الخامسة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م /٢٣٠ ، ٢٣١

(٢) فاطر/ ١٤

وجاءت هذه الصيغ على هذا النحو :

أولاً : صيغة " فعَّال " : ورد منها ـ وصفـًا للنفس ـ لفظان هما :

" أمَّارة " (١) ـ " اللوّامة " (٢)

أشرت ـ من قبل ـ في شيء من الاختصار لهذين اللفظين في مبحـث " صـيغ المبالغة " (٣) وأبسط ـ هنا ـ الحديث عنهما من خلال المنظومة الكاملة لطبيعة النفس البشرية وإيضاح " علم النفس " لحقيقتها.

قلـت ـ آنفًا ـ إن الإنسان الذي لا يتحكم في أهوائه وشهواته ، وينساق وراء إشـباع الرغبات والنزوات ، يصبح خاضعـًا لتوجيه نفسه الأمَّارة بالسوء كما قال تعالى :

﴿ وَمَـا أُبَـرِّئُ نَفْسِي إن النَّفس لأمَّارة بالسوءِ إلا ما رَحِم رَبِّي إنَّ رَبِّي غفور ،، رحيم ،، ﴾ (٤) .

والـنفوس ثلاثـة : أمَّـارة بالسوء ، ولوَّامة ، وهي التي تلوم صاحبها ، ومطمئنة (٥) .

---

(١) في قوله تعالى : " إن النفس لأمَّارة بالسوء " يوسف /٥٣ ، مرة واحدة فقط .

(٢) في قوله تعالى : " ولا أقسم بالنفس اللوّامة " القيامة / ٢ ، ووردت كذلك اللفظة مرة واحدة فقط .

(٣) انظر صيغ المبالغة في الفصل الأول .

(٤) يوسف /٥٣

(٥) انظـر التسـهيل ٢ / ١٢٢ . ويـرى بعض العلماء أن النفس الإنسانية واحدة لا ثلاث ، وإنما تحمل صفات متعددة بحسب ما تصطبغ به ، فهي مطمئنة بوصفها ، منيبة إلى ربها ، وهي لوّامة لكثرة تقلبها وتـرددها بيـن الطاعـة والمعصية ، وهي أمَّارة لازدياد أمرها بالسوء . انظر مناهـــج التربية ـ أسسها وتطبيقاتهـا ـ د . علي أحمد مدكور ، دار الفكر العربي ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م ص ٨٣ .

والـــنفس الأمَّارة : أدنى أنواع النفس ؛ فهي كثيرة الأمرة بالسوء لا تنفك عــن أمر صاحبها بالسوء ، المرة تلو المرة ، ولانجاة للمرء منها إلا أن يعصـــم الله تعـــالى . ومجيء الوصف على صيغة المبالغة يوحي بمدى طغـــيان الـــنفس ــ إن ســـاءت ــ على الإنسان ، فهي ميَّالة بالطبع إلى الشـــهوات إلا أن يقمعهـــا الإنسان ، مسترسلة دومـــًا في استعمال القوى والجوارح في أثرها كل الأوقات .

أما الإنسان الذي يكون في مرتبة أعلى من الكمال الإنســـاني ، بحيث

يكـــون ضـــميره مســـتيقظـــًا ، فيستنكر ضعف إرادته وانقياده لأهوائه ، وشـــهواته وملـــذات الحـــياة الدنيوية مما يوقعه في الخطيئة والمعصية ، فيشـــعر بالذنـــب ، ويلوم نفسه على ما فرط منها ، ويتجه إلى الله تعالى مســـتغفرًا تائبـــًا ، فإنه يكون في هذه الحالة تحت تأثير " النفس اللوَّامة " وهـــو الوصـــف الثاني لبنية المبالغة كما قال تعالى : ﴿ وَلا أُقسم بالنَّفس اللوَّامـــة ﴾ (١) وهي التي تلوم صاحبها في ترك الطاعة ونحوها ، فهي على هذا ممدوحة ، ولذلك أقسم الله بها ، عن مجاهد : تلوم على ما فات وتندم على الشر لِمَ فعلته ؟ وعلى الخير لِمَ لـــَمْ تستكثر منه (٢) .

ومجـــيء الوصـــف بهـــذه البنية مُشعر'' بكثرة وقوع اللوم من الإنسان المُـــقصرّ والوصف قائم'' على المدح ، وهذه النفس أفضل من الأولـــى " الأمَّارة " إذ هي مذمومة ، وأفضل منهما وصف آخر وإن لم يجئ على بنية المبـــــالغة إلا أنه متمم'' لقسمة النفس ألا وهـــي النفـــس " المطمئـــنة " ببنـــية اســـم الفـــاعل كما في قوله تعالى : ﴿ يَاأيتَها النَّفسُ المطمئـــنةُ * ارْجعـــي إلى رَبِّك راضيةً مَرْضية * فَادْخُلي في عِبادي * وادْخُلي جَنَّتي ﴾ (٣)

---

(١) القيامة / ٢

(٢) انظر البحر المحيط ٨ / ٣٧٥

(٣) الفجر /٢٧ - ٣٠

ولعل النكتة في ورود الوصفين الأولين : " أمَّارة " ، " اللوَّامة " على بنية المبالغة ، ومجيء الوصف الثالث " المطمئنة " على بنية اسم الفاعل هو كثرة تعدد الأمر بالسوء ، والميل الفطري له في الوصف الأول وهو أمر'' يحدث منها تباعـًا وكذلك الوصف الثاني لتكرر اللوم كلما أحدث ذنبـًا أحدثت نفسُهُ لومـًا فهي متجددة ، مُكرِّرة'' للوم وَفـقـًا للسوء .

بينما النفس المطمئنة رسخت واستقرت على طاعة الله تعالى فناسب ذلك مجيء الوصف على بنية اسم الفاعل الدال على الثبات والاستقرار والله أعلم .

ويمكن أن نتصور هذه المفاهيم الثلاثة للنفس ، وهي النفس الأمَّارة بالسوء ، والنفس اللوَّامة ، والنفس المطمئنة على أنها حالات تتصف بها شخصية الإنسان في مستويات مختلفة من الكمال الإنساني التي تمر بها أثناء صراعها الداخلي بين الجانبين المادي ، والروحي ، فحينما تكون شخصية الإنسان في أدنى مستوياتها الإنسانية بحيث تسيطر عليها الأهواء والشهوات والملذات البدنية والدنيوية ، فإنها تكون في حالة ينطبق عليها وصف النفس الأمَّارة بالسوء . وحينما تكون الشخصية في أعلى مستويات الكمال الإنساني بحيث تكون متمسكة بتقوى الله تعالى وطاعته ، ومتحكمة في أهوائها وشهواتها ، ومحققة التوازن التام بين المطالب البدنية والروحية ، فإنها تكون في الحال التي تنطبق عليها وصف النفس المطمئنة . وبين هذين المستويين مستوى آخر متوسط بينهما يحاسب فيه الإنسان نفسه على ما يرتكب من أخطاء ، ويسعى جاهدًا إلى الامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله ويسبب له تأنيب الضمير ، ولكنه لا ينجح دائمًا في مسعاه ، فقد يضعف أحيانًا ويقع في الخطيئة . ويطلق على الشخصية في هذا المستوى النفس اللوَّامة .

ويجـدر بنا أن نشير إلى أنه بعد نزول القرآن بنحو أربعة عشر قرنًا من الزمان جاء " سيجمند فرويد " مؤسس مدرسة التحليل النفسي بنظرية في الشخصـية مـيز فيها ثلاثة أقسام للنفس ، يبدو في بعض وظائفها بعض أوجـه الشـبه بمفاهيم النفس الأمَّارة بالسوء ، والنفس اللوَّامة ، والنفس المطمئـنة الواردة في القرآن ، غير أنه توجد في الحقيقة اختلافات كبيرة بيـن هـذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية " فرويد " (١) .

ذهـب " فـرويد " إلـى أن النفس ثلاثة أقسام هي : الهو ، وأنا ، والأنا الأعلـى . و " الهـو " في رأي " فرويد " هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي الغرائز التي تنبعث من البدن . وهو يُطيع " مبدأ اللذة " ويهدف ـ دائمًا ـ إلى الإشباع من غير مراعاة للمنطق ، أو الأخلاق أو الواقـع و " الهو " بهذا المعنى يبدو أنه يشبه مفهوم " النفس الأمارة بالسوء " .

و " الأنا الأعلى " هو ذلك الجزء من النفس الذي يتكون من التعاليم التي يلقاها الفرد من والديه ومُدرسيه ومن قيم الثقافة التي ينشأ فيها ، ويصبح قوة نفسية داخلية تحاسب الفرد وتراقبه ، وتنقده وتهدده بالعقاب ، وهو ما يعـرف عادة بالضمير . ويرى " فرويد " أن " الأنا الأعلى " يمثل ما هو سـامٍ فـي الطبـيعة الإنسـانية ، وهـو بهذا المعنى يبـدو أنه يشـبه مفهـوم " النفس اللوَّامة " .

---

(١) انظر القرآن وعلم النفس / ٢٣٣

و " الأنــا " هــو ذلك الجزء من النفس الذي يقبض على زمام الرغبات الغريــزية المنبعــثة من " الهو " ويسيطر عليها ، فيسمح بإشباع ما يشاء منها ، ويؤجل ما يرى تأجيله ، ويكبت ما يرى ضرورة كبتــه مراعيــًا " مبدأ الواقع " أو العالم الخارجي بما يتضمنه ذلك من قوانين وقيم وأخلاق وتعاليم دينية .

ويقــوم " الأنا " في رأي " فرويد " بالتوفيق بين " الهو " والواقع أو العالم الخارجــي ، و " الأنا الأعلى " بحيث يسمح بإشباع رغباته الغريزية في الحدود التي يسمح بها الواقع ، ويحدّ من تطرف " الأنا الأعلى " بحيث لا يجعله يسرف في النقد والتهديد بالعقاب بدون مُبرِّر معقول .

وإذا نجــح " الأنا " في وظيفته التوفيقية أمكن أن يتحقق للإنسان الاتزان والســواء والصحة النفسية . وعلى ذلك فإنه يبدو وجود شبه بين النتيجة التــي يؤدى إليها نجاح " الأنا " في وظيفته وما يحققه للإنسان من اتزان وســعادة وبين حالة " النفس المطمئنة " التي يصل إليها الإنسان بالتغلب علــى أهوائــه وبتحقــيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية ، مراعــيــًا فــي ذلك " مبدأ الواقع " الذي يفرضه نظام الحياة في المجتمع المســلم مــن القــيام بالعبادات المفروضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعمل الصالح ، واتباع قواعد الأخلاق الإسلامية .

وفي الحقيقة يوجد اختلاف كبير بين هذه المفاهيم الثلاثة للنفس كما وردت فــي القرآن الكريم وبين أقسام النفس الثلاثة في نظرية " فرويد " فمفاهيم الــنفس الأمــارة ، والــنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة حالات مختلفة ، تتصــف بهــا النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحــي في شخصية الإنســان ، وهي ليست أقسامــًا مختلــفة

للـــنفس كما أنها لا تتكون أثناء مراحل نمو معينة يمر بها الإنسان . أما مفاهـــيم " الهو " ، و " الأنا " و " الأنا الأعلى " فهي في نظرية " فرويد " أقسام مختلفة للنفس ، كما أنها تتكون في مراحل مختلفة من نمو الطفــل " فـــالهو " هو نفس الطفل عقب ميلاده مباشرة ، إذ يكون الطفل واقعــًا كلـــيةً تحت تأثير متطلباته الغريزية . ثم تحت تأثير العالم الخارجي يبدأ يـــتكون من " الهو " جزء متميز عنه هو " الأنا " وهو الذي يقوم بالتحكم فـــي الغرائـــز المنبعـــثة مـــن " الهو " مراعيــًا مقتضيات الواقع والعالم الخارجـــي . ومن التعالم والنواحي التي يتلقاها الطفل من والديه والثقافة التي ينشأ فيها يتكون " الأنا الأعلى " ، وهو الضمير الذي يحاسبه ويلومه ويؤنبه على ما يقوم به من أخطاء . ويقوم بين هذه الأقسام الثلاثة صراع يحاول فيه " الأنا " أن يوفق بين متطلبـــات " الـــــهو " و " الأنا الأعلى " والعـــالم الخارجـــي . فـــإذا نجح في ذلك كان الإنسان سويــًا ومتمتعــًا بالصحة النفسية .

وبيـــنما يقـــع الصراع النفسي في نظرية " فرويد " بين أقســـــام النفس الثلاثة ، فإنه يقع وفقــًا لتصوير القرآن لطبيعة تكوين الإنسان بين الجانب المـــادي والجانب الروحي من شخصية الإنسان . وتنشأ تبعــًا لنتيجة هذا الصراع حالات النفس الثلاث : النفس الأمارة بالسوء ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة [١] .

ولا شك أن ربط أقسام النفس تبعــًا للجانب المادي والجانب الروحي على نحـــو مـــا جـــاء في القرآن الكريم أعدل وأوفق ، أما الجانب " العمري" للإنســـان وربطه بأقسام النفس الثلاثة ، ففيه إقحام'' لفـــترة الطفـــولة ـــ مـــثلاً ـــ في تلك القسمة ، وأنه يقع تحت تأثير متطلباته الغريزية أو كما سمَّاها " فرويد " " الهو " ، بينما أطلق الشرع الإسلامي الحكيم على تلك الفترة : { الفِطرة أو البراءة } ، فلا تكليف عليه البتة ، ولا حكم عليه فـــي طاعة أو معصية حتى يبلغ الرشد ويتمكن من إدارة الصراع وَفْــق حرية الاختيار في اتباع المنهـــج الربانـــي أو ما سمَّاه القـــرآن : { النفس المطمئنة والنفس اللوَّامـــة } أو النكـــوص عنـــه واتبـــاع

---

(١) انظر القرآن وعلم النفس / ٢٣٢ - ٢٣٥

مسلك الهوى والغواية أو ما سمّاه القرآن : { النفس الامّارة } فما أجمل القرآن دليلاً وحكمًا ! وما أعظم الإسلام دينًا وشرعًا وما هذا إلا قبس'' من فيض الإعجاز القرآني البليغ .

ثانيًا : صيغة فعيل : ورد منها ـ وصفًا للنفس ـ مثال'' واحد'' في القرآن الكريم بلفظ " خصيمًا " (١)، ومثالان بلفظ " خصيم " (٢) وقد أبنتُ ذلك من قبل في " صيغ المبالغة " (٣) فلا داعي لإعادته هنا .

ثالثًا : صيغة فعول : ورد منها ـ وصفًا للنفس ـ اثنا عشر وصفًا هي :

جزوعًا (٤) ـ جهولاً (٥) ـ ظلومًا (٦) ـ عجولاً (٧) فخورًا (٨) ـ فتورًا (٩) ـ قنوط (١٠) ـ كفور (١١) ـ كنود (١٢)

---

(١) في سورة النساء / ١٠٥

(٢) في سورة النحل / ٤ ، وفي سورة يس~ / ٧٧

(٣) انظر صيغ المبالغة ـ في الفصل الأول .

(٤) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إذا مسّه الشر جزوعًا " المعارج / ٢٠

(٥) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً " الأحزاب / ٧٢

(٦) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة بهذا اللفظ في قوله تعالى : " إنه كان ظلومًا جهولاً " الأحزاب / ٧٢ وأخرى بلفظ " ظلوم " في قوله تعالى : " إن الإنسان لظلوم كفار " ابراهيم / ٣٤

(٧) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً " الإسراء /١١

(٨) ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات هي : قوله تعالى : " ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح'' فخور " هود / ١٠ وقوله تعالى : " إن الله لا يحب كل مختال فخور " لقمان /١٨ ، وقوله تعالى : " والله لا يحب كل مختالٍ فخور " الحديد / ٢٣

(٩) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " وكان الإنسان قتورًا " الإسراء /١

(١٠) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " وإن مسّه الشر فيئوس قنوط " فصلت / ٤٩

(١١) ورد في القرآن الكريم بهذا اللفظ " كفور " ثماني مرات هي : هود / ٩ ، الحج / ٣٨ ، ٦٦ ولقمان / ٣٢ وسبأ /١٧ وفاطر/ ٣٦ والشورى/ ٤٨ والزخرف / ١٥ ، ولفظ " كفورًا " ورد أربع مرات هي : الإسراء / ٢٧ ، ٦٧ والإنسان / ٣ ، ٢٤

(١٢) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان لربه لكنود " العاديات / ٦

منوع (١) ــ هلوعَ (٢) ــ يئوس (٣) .

درس علمـــاء النفس هذه الأوصاف تحت ما يُسمَّى بـــ " الانفعالات " (٤) فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يُزوِّد الإنسان والحيوان بانفعالات تعينهما علـــى الحياة والبقاء . فانفعال الخوف ــ مثلاً ــ يدفع المرء إلى تجنب الأخطـــار التـــي تهدد حياته . وانفعال الغضب يدفعه إلى الدفـــــاع عن الـــنفس ، وإلـــى الصراع من أجل البقاء . وانفعال الحب هو أساس تآلف الجنسين وانجذاب كل منهما إلى الآخر من أجل بقاء النوع .

وثمـــة علاقـــة كبيرة بين الدوافع (٥) والانفعالات . فالدوافع تكون عادة مصحوبة بحالة وجدانية انفعالية ، فحينما يشتد الدافع ويعاق عن الإشباع فـــترة من الزمن تحدث في الجسم حالة من التوتر . وتصاحب ذلك عادة حالـــة وجدانـــية مُكدِّرة ، وإشباع الدافع يكون مصحوبـــًا بحالة وجدانية ســـارة . ثم إن الانفعال يقوم بتوجيه السلوك مثل الدافع . فانفعال الخوف يدفـــع الإنسان إلى الهرب من الخطر ، وانفعال الغضب يدفعه إلى الدفاع عن النفس ، وقد يدفعه إلى العدوان ، وانفعال الحب يدفعه إلى التقرب من موضوع حبه (٦) .

وجـــاء فـــي القرآن الكريم'' وصف'' دقيق لكثيرٍ من الانفعالات التي يشعر بها الإنسان مثل الخوف ، والغضب ، والحب ، والفرح ، والكره

---

(١) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " وإذا مسَّه الخير منوعـــًا " المعارج / ٢١

(٢) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان خُلـــق هلوعـــًا " المعارج / ١٩

(٣) ورد فـــي القرآن الكريم بهذا اللفظ " يئوس " مرتين : في قوله تعالى : " ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس'' كفور " هود/ ٩

وقولـــه تعـــالى : " لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسَّه الشر فيئوس'' قنوط " فصلت / ٤٩ ، وبلفـــظ " يئوســـًا " مرة واحدة في قوله تعالى : " وإذا مسَّه الشَّر كان يئوســـًا " الإسراء / ٨٣

(٤) انظر : القرآن وعلم النفس / ٧١

(٥) الدوافع : هي القوى المُحرِّكة التي تبعث النشاط في الكائن الحي وتبدئ السلوك وتوجهه نحو هدف أو أهـــداف معينة . والدوافع تؤدي وظائف ضرورية وهامة للكائن الحي فهي التي تدفعه إلى القيام بإشباع حاجاتـــه الأساســـية الضـــرورية لحياته وبقائه ، كما تدفعه إلى القيام بكثير من الأفعال الأخرى الهامة والمفيدة له في توافقه . انظر القرآن وعلم النفس /٢٧

(٦) انظر : القرآن وعلم النفس / ٧١

والغـــيرة ، والحســـد ، والندم ، والحياء ، ... الخ أمَّا ما جاء منها على طــريق المـــبالغة لبـــيان الزيادة في الصفة وبلوغها الغاية فقد جاءت في الاثنـــي عشر وصفـــًا السابقة مع ملاحظة تقارب وصفين هما " يئوس وقـــنوط " فيمكن وصفهما على العموم وصفـــًا واحدًا ، فيُصبح الإجمالي أحد عشر وصفـــًا ، مُزجت فيها الانفعالات بالصفات الجبليَّة في الإنسان على النحو التالي وَفـــقـــًا للترتيب الهجائي :

١- الجزع	" جزوعًا "
٢- الجهل	" جهولاً "
٣- الظلم	" ظلومـــًا "
٤- التعجل	" عجولاً "
٥- الفخر	" فخور "
٦- البخل	" قتورًا "
٧- القنوط	" يئوس قنوط "
٨- الكفر	" كفور "
٩- الكنود	" كنود "
١٠- المنع	" منوع "
١١ - الهلع	" هلوع "

شرحتُ منها من قبل في " صيغ المبالغة " ثلاثـــًا فقط هي : البخـــل والقنوط والكفـــر (١) . وإلـــيك الصفات والانفعالات الثمانية الباقية التي تمثل الغرائز والركائـــز التـــي جُبل عليها الإنسان ، والتي ينبغي أن يتخلص من بعضها تمامـــًا ، ويتخفف من بعضها الآخر كما قال تعالى :

---

(١) انظر " صيغ المبالغة " في الفصل الأول .

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٢)

١- الجزع (٣)

الجزع أبلغ من الحزن ، فإن الحزن عام والجزع هو : حزن" يصرف الإنسان عمًّا هو بصدده ، ويقطعه عنه (٤) ، والحزنُ ـ بعموم ـ انفعال مضاد للفرح والسرور ، وهو يحدث إذا فقد الإنسان شخصًا عزيزًا ، أو شيئًا ذا قيمة كبيرة ، أو إذا حلَّت به كارثة ما ، أو فشل في تحقيق أمرٍ مهم .

ويبدو أن " الجزع " صفة" يقترنُ فيها الحزنُ بالخوف عند حدوث الشر للإنسان كما قال تعالى : " وإذا مسَّه الشرُّ كانَ جَزوعًا " (٥) .

قال أبو السعود : { أي مبالغًا في الجزع مُكثرًا منه } (٦) ، وينجرُّ هذا الوصف على كلِّ إنسان ـ بهذا القدر الزائد في الصفة ـ لأنها من الطبائع الجبلية الراسخة في النفس ، لكن الناس يتفاوتون فيها على قدر إيمانهم وأنت ترى هذا شائعًا بين الناس عند وقوع البلوى بهم ، وإذا كان الجزع يبدو فيه الحزن مقترنًا بالخوف ، فقد جاءت الآيات القرآنية تطمئن المؤمنين بنفي الوصفين معًا عنهم كما قال تعالى :

---

(١) التغابن/ ١٦

(٢) الشمس /٧ ـ ١٠

(٣) ورد في القرآن الكريم ـ كما أشرت من قبل ـ مرة واحدة في قوله تعالى : " إذا مسَّه الشر جزوعًا " المعارج /٢٠ ، وفي اللسان : { الجزوع : ضد الصبور على الشر والجزع نقيض الصبر .. وقيل : إذا كَثُر منه الجزع ، فهو جَزوع" وجُزَاع" } لسان العرب مادة (ج . ز . ع) .

(٤) وأصل الجَزْع : قطع الحبل من نصفه ، يقال : جَزَعتُه فانجزع ، ولتصور الانقطاع منه قيل : جِزْع الوادي لمنقطعه ، ولانقطاع اللون بتغيره قيل للخرز المتلون جَزْع . وقيل للبسرة إذا بلغ الإرطاب نصفها : مُجزِّعة . انظر المفردات /١٩٥

(٥) المعارج/ ٢٠

(٦) أبو السعود ٩ / ٣٢

﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِم وَلاَ هُم يَحْزَنون ﴾ (١)

﴿ بلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وهو مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِم وَلاهم يَحْزنون ﴾ (٢)

﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِم وَلاَهُم يَحْزَنون ﴾ (٣)

﴿ فَمَنْ اتقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوفٌ عَلَيهِم وَلاهُم يَحْزَنون ﴾ (٤)

٢- الجهل (٥)

هذا هو الوصف الثاني ، قال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً ﴾ (٦)

فقد عُرضَت الفرائضُ والتكاليفُ الشرعيةُ على السموات والأرض والجبال فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها ، والغرضُ تصوير عظم الأمانة وثقل حملها ، وعلى الرغم من هذا فقد تحملها الإنسان ومن هنا كان شديد الظلم لنفسه ؛ لأنه لم يفِ بها ولم يراع حقها ، فما أسهلها تحمُّلاً وأصعبها أداءً ثم كان في الوقت ذاته مبالغًا في الجهل " جهولاً " بكنه عاقبتها قال البيضاوي : { كان ظلومًا لنفسه بتحمله ما يشق عليها جهولاً بوخامة عاقبته ، ولعل المراد بالأمانة العقل أو التكاليف ... وكونه ظلومًا جهولاً لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وعلى هذا

---

(١) البقرة / ٣٨

(٢) البقرة /١١٢

(٣) الأنعام / ٤٨

(٤) الأعراف / ٣٥

(٥) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إنه كان ظلومًا جهولاً " الاحزاب /٧٢ ، والجهل على ثلاثة أضرب : الأول : وهو خلو النفس من العلم ، هذا هو الأصل . والثاني : اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه . والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقـه أن يُفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا كمن يترك الصلاة متعمدًا . انظر المفردات / ٢٠٩

(٦) الأحزاب / ٧٢

يحسن أن يكون علة للحمل عليه ، فإن من فوائد العقل أن يكون مهيمنًا على القوتين حافظًا لهما من التعدي ، ومجاوزة الحد ، ومعظم مقصود التكاليف تعديلهما وكسر سورتهما } (١) .

والجهل صفة لازمة للإنسان إلا أن يعمل على ضدّ ذلك ، فيقوّم نفسه بالعلم ويتسلح بالمعرفة ، ولا ينفك عن طلب العلم مهما بلغ من عمر وأنفق من مال قال تعالى : ﴿ واللَّه أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٢)

٣- الظلم (٣)

هذا هو الوصف الثالث من الصفات الثمانية كما في قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم" كفار ﴾ (٤) أي وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدّها ، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد ، والإنسان : اسم جنس ؛ أي إن الإنسان لمبالغ في الظلم والجحود ، ظالم لنفسه بتعديه حدود الله ، جحود لنعم الله قال الزمخشري : { (لظلوم) يظلم النعمة بإغفال شكرها (كفّار) شديد الكفران لها وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع ، كفار في النعمة يجمع ويمنع } (٥) قال سيد قطب : { وهنا يُفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر : السموات والأرض والليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجري فيه الفلك ، والأنهار تجري بالأرزاق ..هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ، ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون : إن الإنسان لظلوم" كفار .

---

(١) البيضاوي ٢ / ٢٥٤

(٢) النحل/ ٧٨

(٣) ورد في القرآن الكريم مرتين : مرة بلفظ " ظلومًا " في قوله تعالى : " إنه كان ظلومًا جهولاً " الأحزاب/ ٧٢ ، وأخرى بلفظ " ظلوم " في قوله تعالى : " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم" كفار " ابراهيم /٣٤

(٤) إبراهيم/ ٣٤

(٥) الكشاف ٢ / ٣٠٤

يبدل نعمة الله كفرًا ، ويجعل لله أندادًا ، وهو الخالق الرازق المُسخر الكون كله لهذا الإنسان } (١) .

وتوحي بنية المبالغة " ظلومًا " بمدى فرطه في الظلم وتجاوزه حدود الله ، فإن لم يبطش بالجارحة لا ينفك عن ظن أو حسد أو تشاؤم ، وإن لم يظلم نفسه ظلم غيره ولذا فكل أنواع الظلم التي يُجريها الإنسان مُحرَّمة : ظلمه لربه بالكفر ، وظلمه للناس بالإيذاء ، وظلمه لنفسه بارتكاب الآثام .

٤- التعجُل (٢)

التعجل صفة تنشأ عن حرص الإنسان على مصالحه وسرعة الاستحواذ عليها والخوف في الوقت ذاته من ضياعها وفقدانها . والتعجل ـ بعموم ـ صفة مذمومة إلا في حالات خاصة مثل التعجل بالصدقة والبر والتوبة والزواج وتشييع الجنازة . قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الإنسانُ بالشرِّ دُعَاءه بالخيرِ وكان الإنسانُ عَجُولاً ﴾ (٣) أي يسارع إلى كل ما يخطر بباله متعاميًا عن ضرره أو مبالغًا في العجلة يستعجل العذاب وهو آتيه ، لا محالة ، ففيه نوع تهكم به ، وعلى تقدير حمل الدعاء على أعمالهم ، تَحمل العجولية على اللج والتمادي في استيجاب العذاب بتلك الأعمال ، وعلى الثاني أن القرآن يدعو الإنسان إلى ما هو خير ، وهو في بعض أحيانه ـ كما عند الغضب ـ يدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر ، وكان الإنسان بحسب جبلته عجولاً ضجرًا ، لا يتأتى إلى أن يزول عنه

---

(١) الظلال ٤ / ٢١٠٦

(٢) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : "ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً " الإسراء / ١١

في اللسان : { العَجَل والعَجَلة : السرعة خلاف البطء .. والاستعجال والإعجال والتعجل واحد : بمعنى الاستحثاث وطلب العجلة وأعجله وعجّله تعجيلاً إذا استحثه ، وقد عَجِل عَجَلاً وعجّل وتعجّل . واستعجل الرجل : حثه وأمره أن يعجل في الأمر } اللسان مادة (ع - ج - ل) .

(٣) الإسراء / ١١

يعتريه (١).

ومن ناحية أخرى تُلمح الصيغة " صيغة المبالغة " " عجولاً " إلى الوقع السريع للإنسان في مُعتَرَك الحياة ، فلعلَّ عينك لا تُخطئ الإيقاع الحركي المتلاحق له في وسائل المواصلات ــ مترو الأنفاق مثلاً ــ كيف يحاول الإنسان اقتحام عربة القطار بعد أن آذن بالرحيل وتحرّك الباب للإغلاق على الرغم أن وقت الانتظار بين كل قطارين دقائق معدودة ، فلا تملك ــ ساعتها ــ إلا أن تقول على وَجْه اليقين والتحقق " وكان الإنسان عجولاً " .

٥- الفخر (٢)

اقترن " الفخر " في الآيات الثلاث : مرة بالفرح " لفرح" فخور " ومرتين بالاختيال : " مختال فخور " وكلها صفات مذمومة : الفرح : البطر بالنعم والاغترار بها ، والاختيال : الكبر والزهو والتعالي ، الفخر : التعاظم والكبر .

والفخر انفعال يشعر به الإنسان إذا نال ما تمنَّاه ، وحصل على ما يحب أن يحصل عليه من مالٍ ، أو نفوذٍ ، أو نجاح ، أو علم ، إذ كان دأبه في الحياة وهدفه الذي كان يسعى إليه قد تحقق ، فصار مصدر فخر له وإشادة ، قال الراغب الأصفهاني : { الفخر : المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه ، ويقال : له الفخر ، ورجل فاخر ، وفخور ، وفَخِير على التكثير } (٣).

---

(١) انظر أبا السعود ٥ / ١٥٩ ، ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وبالدعاء استعجاله بالعذاب استهزاءً كقول النضر بن الحارث : اللهمّ انصر خير الحزبين ، اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ... الآية فأجيب له فضرب عنقه صبراً يوم بدر . انظر البيضاوي ١ / ٥٦٥ ، ٥٦٦ لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٢) ورد في القرآن الكريم ثلاث مرَّات هي : قوله تعالى : " ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح" فخور " هود/ ١٠ ، وقوله تعالى : " إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور " الحديد/ ٢٣ ، في اللسان : { الفخر والفَخَر : التمدح بالخصال .. وتفاخر القوم : فخر بعضهم على بعض . والتفاخر : التعاظم والتفخُّر : التعظّم والتكبر .. وقوله تعالى : " إن الله لا يحب كل مختال فخور " الفخور : المتكبر .. وفي الحديث : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " ؛ الفخر : ادّعاء العِظَم والكِبْر والشَّرف ؛ أي لا أقوله تبجحاً ، ولكن شكراً لله وتحدثـاً بنعمه } اللسان ٥/٣٣٦١

(٣) المفردات /٦٢٧

ويبدو أن للفخر حدين : حدٌ مسموح به وهو بمعنى التمدح بالخصال ، لا سيما عند تعرُض الإنسان لإهانةٍ أو عند القتال ولا يقصد عند ذلك الكِبْر أو التعاظم وإنما يكون بغرض إظهار الشكر لله والتحدث بآلائه ونعمه ، ويأتي في هذا السياق حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " ، وكذلك قول علي عند القتال :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة . كليث غاباتٍ كريه المنظره . أوفيهم بالصاع كيل السندره .

وحدٌ آخر مذموم وهو ما جاء في الآيات الثلاث .

ولعل بروز هذه الصفة يكون ظاهرًا عند الأطفال ، فكثيرًا ما يتباهون بآبائهم وأجدادهم وعائلاتهم ، بل لم تسلم أمتعتهم وطعامهم وسياراتهم أيضًا من الفخر والتباهي والتمادح .

وتبدو كذلك واضحة عند النساء فهن يحببن الفخر والثناء وكلمات الإطراء أكثر من الرجال إلا إذا تولى الرجال مناصب أو سلطانًا فالجميع عند ذلك يتساوى في الفخر ــ حتى أصحاب الفِطر السوية ــ إذا تعرضت ذواتهم للنقد ، أو جرحت كرامتهم بسخرية أو استهزاء على سبيل الزود عن كرامتهم ، والصد عن النيل منهم ، لذا فقد تداخلت في هذه الصفة دوافع الإباحة والتحريم معًا .

٦- الكنود (١)

الكنود هو الجَحُود وقيل : هو الكَفُور لنعمة الله ، كقولهم : أرض كنود : إذا لم تُنبت شيئًا (٢) قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لكنودٌ ﴾ (٣)

---

(١) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان لربه لكنود " العاديات / ٦ ، وجاء في اللسان : { كَنَدَ يَكْنُدُ كنودًا : كفر النعمة ، ورجل" كنَّاد وكنود . وقوله تعالى : " إن الإنسان لربه لكنود " قيل : هو الجحود ، وهو أحسن ، وقيل : هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده .. وقال الكلبي : لكنود : لكفور بالنعمة ، وقال الحسن : لوَّام لربه يَعُدُّ المصيبات وينسى النعم ؛ وقال الزجاج : لكنود ، معناه لكفور ، يعني بذلك الكافر } اللسان مادة (ك . ن . د) .

(٢) انظر المفردات / ٧٢٧

(٣) العاديات / ٦

وقـيل المراد بالإنسان الجنس ، وقيل بعض أفراده . وهذا الأمر يتوقف في نظـري على الإجابة عن السؤال : هل كل إنسان ينشأ نكـارًا للنعم ، كنادًا للمنـن ، يَعُدُّ المصائب ، وينسى المحامد ، في اعتقادي أن الوصف ينسحبُ على العاصي أو الكافر ، ولا ينسحب بحالٍ على المؤمن ، وهي كذلك ليست صفة جبلـيَّة ينشأ عليها كلُّ بني البشر . ومن هنا مال " ابو السعود" إلى أن الوصف متعلق ببعض الأفراد وليس كلهم (١) .

ولعـلَّ صيغة المبالغة " كنود " من دلائل بُعدْ المؤمن عن هذا الوصف ، فإذا تسـنَّى لبعض المؤمنين أن يجحد النعمة مرة أو مرتين نسيانـًا أو جَهْلاً أو تقصـيرًا فإنه لا يتوقع منه أن يدأب على ذلك ويكرره ويزيد فيه حتى يصل إلـى حد المبالغة " كنود " ؛ لأن الكـنُودَ ذاته يتنافى مع الإيمان ، فالإيمان إقرار'' بالحق والكـنُود نُكران .

٧- المنع (٢)

المـنع صـفة تنشأ عن شعور الإنسان بحب التملك والاستحواذ ، كذلك تنشأ نتـيجة خوف الفقر والفقد والفوت ، وهي صفة تؤدي وظيفة مهمة للإنسان حيـث تسـاعده علـى حفظ ذاته ، ومصالحه ، وشئون أهـله وذويـه من الضياع .

ولكـي تتبين لك تأثير هذه الصفة في الإنسان .. انظر أيهما يحب ويفرح .. عند الإعطاء أم عند الأخذ ؟ ! تجده في الأولى عند الإعطاء يحزن .. وعند الأخذ يفـرح ويسعد .. صفـةَ يشترك فيها كل إنسان ! إلا أن يبلـغ في

---

(١) انظر أبا السعود ٩ / ١٩١

(٢) ورد في القرآن الكريم بهذه الصيغة " فعول " مرة واحدة في قوله تعالى : " وإذا مسَّه الخير مـنوعًا " المعـارج/ ٢١ ، بَيْد أن هذا الوصف ورد مرة أخرى في القرآن الكريم بصيغة فعَّال في قوله تعالى : " مَـنـَّاع للخـير معـتدٍ مريـب " ق~/ ٢٥ ، لكـنه في هذا الوصف الأخير جاء مخصوصًا في سياق الأوصـاف المذمومـة للوليد بن المغيرة فقد كان كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة ، وقيل المراد بالخـير الإسـلام ، وذلك لما منع بني أخيه منه . انظر الكشاف ٤ / ٢٢ ، التحرير والتنوير مجلد ١٢ ٢٦ / ٣١٢ ، البيضـاوي ٢ /٤٢٣ ، أبا السعود ٨ / ١٣١ ، البحر المحيط ٨ / ١٢٤ ، القرطبي ٩ / ٦٤١٦ .

وجـاء فـي اللسان : { المنع : أن تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريده ، وهو خلاف الإعطاء .. ورجل منوع ، ومانع ، ومناع : ضنين مُمسك . وفي التنزيل : " منَّاع للخير " وفيه : " وإذا مسَّه الخير مـنوعـًا " .. وفـي الحديث : أنه كان ينهي عن عقوق الأمهات ومنعٍ وهات ، أي عن منع ما عليه إعطاؤه ، وطلب ما ليس له } اللسان مادة (م . ن . ع) .

تهذيب النفس مبلغًا عظيمًا ، ويرتقي في تكميل أخلاقه مرتقىً بليغًا .. ساعتها يفرح عند الإعطاء ويُؤثِرُ عند الأخذ لذا قال عز من قائل : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١)

وقال تعالى في ذم " المنع " في صورةٍ بيِّنة :﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ ﴾ (٢) فهذا هو " المنوع " الذي يمنع رفده عن الناس منعًا باتًا ، قال ابن جُزيّ : { استعارة في معنى غاية البخل ، كأن البخيل حُبست يده عن الإعطاء وشُدَّت إلى عنقه } (٣) أي شُدَّت بالغُلّ ، وهو القيدُ من " السير " يُشَدُّ به يد الأسير ، فإذا غُلَّت يده إلى عنقه تعذَّر التصرف بها ، فتعطَّل الانتفاع بها فصار مصدر البذل مُعطَّلاً فيه (٤)

بَيْد أنه ينبغي الحذر أن ثمَّ وصفًا آخرَ مذمومًا ، وهو الذي ضد المنع وهو الإسراف ، فهو أيضًا وصف محذوركما قال تعالى : ﴿ وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ (٥) لكن لِمَ هذا ؟ لماذا كان الجود المنشود وسطًا بين صفتين مذمومتين هما : البخل والإسراف ؟ !

أقول ربما لأنهما ضد حفظ بقاء الإنسان على الأرض ، فالصفة الأولى : " البخل " فيه هلاك'' للفقراء والضعفة وذوي العَوَز والصفة الأخرى : " الإسراف " فيه هلاك للنفس ، وضياع'' للأهل .

---

(١) التغابن / ١٦

(٢) الإسراء / ٢٩

(٣) التسهيل ٢ / ١٧٠

(٤) انظر التحرير والتنوير مجلد ٧ ١٥/٨٥

(٥) الإسراء / ٢٩

٨- الهلع (١)

مـــن معانيه : الحرص ، والجزع ، وقله الصبر ؛ فلا يصبر على خيرٍ ولا شـــر حتى يفعل في كل واحدٍ منهما غير الحق ، الجبن عند اللقاء ، وصفته كما قال تعالى : ﴿ إذا مَسَّه الشرُّ جَزُوعًا * وإذا مسَّه الخيرُ مَنُوعًا ﴾ (٢)

والمراد بالإنسان ــ كما قال أبو السعود ــ الجنس ، والدليـــل الاستثناء بعـــدُ " إلا المصلين " (٣) .

فالهلع صفة يتصف به الإنسان ساعة اتقاء الأخطار التي تهدده ، مما يدفع به إلى النجاة بنفسه حبـًا للبقاء ونجاة من الهلاك ــ كما يتصور ــ ولعل أكبر ســـببين للهلع هما : خوف الجوع والفقر ، وخوف الموت والهلاك ومن هنا فهـــو يتقلب في الصفة شرًا وخيرًا ، فعند الشر كالمرض والفقر ولقاء العدو يفزع ويجزع ويجبن أشد الجبن ، وعند الخير كالسعة والصحة تراه منوعـــًا ضنينـــًا مُمسكـــًا .

فهو إذن طبع انفعالي في الضدين ، لا ينخلع عنه ، ولا يَتَشح بسواه وعادة ما يصاحب انفعال الهلع تغيرات كثيرة في الوظائف الفسيولوجية الحشوية وفي ملامـــح الوجـــه ، ونبرات الصوت ، وهيئة البدن ، ويستجيب الإنسان عادة لمواقف الفزع التي تهدده ، وتثير فيه انفعال الخوف والهلع بالابتعاد عنها ، والهرب منها (٤) .

---

(١) ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى : " إن الإنسان ُخلِق هلوعًا " المعـــارج / ١٩ وفي اللســـان : { الهَلــــَع : الحرص ، وقيل : الجَــزَع وقلة الصبر ، وقيل : هو أسوأ الجَـــزَع وأفحشه .. ورجل'' هلع وهالع وهلوع وهلواع وهلواعة : جزوع'' حريص'' . والهَلـــَع : الحُـــزْن ، تميمية . والهلـــعُ : الحزيـــن . وشُـــحٌ هالع'' : مُحـــزِن'' . وفي التنزيل : " إن الإنسان ُخلِق هلوعـــًا " قال َمعمَـــر والحســـن : هو الشَّره ، وقال الفرَّاء : الهَـلـــُوع الضجور وصفته كما قال تعالى : " إذا مسَّه الشـــر جزوعـــًا وإذا مسَّه الخير منوعًا" فهذه صفته والهلوع : الذي يفزع ويجزع من الشر .. قال أبو العـــباس المُـــبرِّد : رجل هلوع إذا كان لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحـــق .. والهلع والهُـــلاع والهَلـــَعَان : الجبن عند اللقاء . وحكي يعقوب : رجل ُهلـــَعة مثل ُهمَزة إذا كان يهلع ويَجزَع ويستجيعُ سريعًا } اللسان مادة (هـــ . ل . ع) .

(٢) المعارج / ٢٠ ، ٢١

(٣) المعارج /٢٢ ، انظر أبا السعود ٩ / ٣٢

هذا وإذا كان الهلع شديدًا ومفاجئـًا انتابت الإنسان حالة من الذهول لفترة من الوقـت لا يسـتطيع فيها الحركة أو التفكير ؛ لذا قال عز من قائل عن حالة الذهول التي يسببها الخوف الشديد المفاجئ ليوم القيامة :

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُم فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (١)

وقـد رصدت بنية المبالغة " هلوعـًا " شدة الجزع ، ومدى تأصله في نفس الإنسان ، فلا ينخلع عن تلك الصفة إلا المصلون .

واللفظـة " وحـيدة فـي القرآن : صيغة ومادة . في معاني القرآن للفراء : الهلوع : الضجور " (٢).

السيطرة على الانفعالات

انقسـمت هـذه الصفات ، والانفعالات التي بلورتها صيغة المبالغة قسمين : الأول : صـفات ينبغـي الـتخلص مـنها كليـةً مثل الكفر ، والكنُـودُ ، والجـهل ، والظلم ، والقنوط ، والهلع ، والجزع ، والمنع .

والآخـر : صـفات ينبغي التخفف منها لأنه لا ينفك عنها كليةً عادةً مثل الـتعجل ، والفخر ، والبخل . فمازال بعض التعجل ممدوحـًا ــ كما أشرت من قبل ــ في الصدقة والتوبة ، وبعض الفخر مباحـًا عند القتال والبخل لا ينافـي الإيمان كما أشار إلى ذلك النبي ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ " أيكون المؤمن بخيلاً ؟ ! قال نعم ! .... "

وعلـى الرغم أن للانفعالات وظائف مهمة في حياة الإنسان ؛ إذ إنها تعينه علـى حفظ ذاته ، وبقائه ، إلا أن الإسراف فيها يضر بصحة الإنسان البدنية والنفسـية ، فانفعال الخوف والجزع والهلع ــ مثلاً ــ مفيد'' للإنسان لأنه يدفعه إلى اتقاء الأخطار التي تهدد حياته ، وسعيه إلى محاولات التخلص من مصـادر الخطـر ، والتحول إلى مواطن النجاة ، أما إذا أسرف الإنسان في خـوفه ، فأصبح يخـاف من أشياء كثيرة ليس فيها ما يهدده بأخطـار

---

(١) الأنبياء/ ٤٠

(٢) الإعجـاز البيانـي للقـرآن ومسائل ابن الأزرق ــ د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ــ دار المعارف ــ ط الثانية ١٩٨٧م / ٥٣٢

حقيقية ، فإن الخف يصبح في هذه الحالة مضرًا . ووجود مثل هذه المخاوف الكثيرة يعتبر في العادة دليلاً على اضطراب الشخصية . وقد بينت الدراسات الحديثة في الطب " النفسجسمي " (السيكوسوماتي) أن اضطراب الناحية الانفعالية عند الإنسان من الأسباب المهمة في نشوء كثيرٍ من أعراض الأمراض البدنية . وأشارت بعض الإحصائيات أن نسبة كبيرة من المرضى الذين يترددون عادة على عيادات الأطباء إنما هم يشكون أساسًا من اضطرابات انفعالية ناشئة عن مشكلاتهم النفسية ، وأن ما يحتاج إليه هؤلاء المرضى ليس علاجًا طبيًا وإنما هم في الحقيقة في حاجة إلى علاجٍ نفسي . وقد أصبح من المعروف الآن بين الأطباء أن أحسن ما ينصح به هؤلاء المرضى هو التخلص من القلق . وقد سبق القرآن العلوم الطبية والنفسية الحديثة في الاهتمام بتوجيه الناس إلى التحكم في انفعالاتهم والسيطرة عليها لما في ذلك من فوائد صحية كثيرة لم تعرف معرفة علمية دقيقة إلا في العصر الحديث (١) .

*****

وبعدُ .... فإذا حار العلماء اليوم في الكشف عن طبيعة الإنسان ، ودوافعه وانفعالاته ؛ فإن القرآن قد قدَّم منذ أكثر من ألفٍ وأربعمائة عامٍ ــ بيانًا شافيًا عن : ما حقيقة الإنسان ؟ ما الطبائع الجِبِلِّيَّة فيه ، وما أموره الاكتسابية ؟ ! بل رصد القرآن ما هو أعظم من هذا ... رصد مقدار هذه الصفات ... وهنا يبرز أداء " المبالغة " ، كما برزت في الشق الأول من هذا المبحث في " أسماء الله الحسنى " حيث عنت هنالك : الزيادة والفضل في هذه الأسماء مِنةً على العباد في قبول التوبات وتنزل الرحمات . أقول : هنا برزت الصفات البشرية التي بلورتها المبالغة ، فجاءت بهذا البيان الكاشف عن انفعالات الإنسان وصفاته .. فهو شديد الجزع .. متمكن في الجهل بحكم المنشأ .. شديد الظلم وفقًا لاجتماع خلالٍ من الصفات المذمومة فيه .. شديد التعجل .. عظيم الفخر .. زائد البخل مُفرط القنوط .. واسع الكفر .. شديد الكنُود .. فاحش المنع .. عظيم الهلع .

فالأصل أنه ينشأ وتلك الصفات المذمومة تعتوره ، فهي التي تؤصل

---

(١) انظر القرآن وعلم النفس /١١٣

اتجاهاتــه وتفسرّ ميوله ورغباته ، إلا أن يرحمه الله ويوفقه في التخلص من المذموم منها إلى المحمود ، ومن الغرق في أوحال النفس الأمَّارة إلى النجاة إلى النفس اللوَّامة .. ثم إلى النفس المطمئنة .

ومــن هــنا أوصـــانا القرآن بعدم الخوف والجزع سواء من الفقر أو الموت وأوصـــانا بالتحكم في انفعال الغضب ودعانا إلى التخلص من الجهل والظلم بالدعوة إلى العلم والعدل ، كما دعا القرآن إلى التؤدة والطمأنينة ونبذ التعجل حتى إلى الصلاة " إذا أتيتم إلى الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وَأتوها وأنتم تمشــون وعلــيكم الســكينة .. " الحديــث ، وذم الزهو والفخر كما عرَّض بالبخلاء ، ودعا إلى الجود والتصدّق ، وأوصانا بحسن الرجاء وعدم القنوط واليأس والكفر ، وَفحَّشَ الحرص والمنع .

ومهما يكن من أمرٍ ، فإن الله ــ تعالى ــ أوصانا بضبط انفعالاتنا ، والتحكم فــيها والســيطرة عليها . وإن الإيمان بالله إيمانــًا صادقــًا ، واتباع منهجه الذي شرعه لنا في القرآن ، وبيَّنه لنا النبي الهادي ــ صلى الله عليه وسلم ــ خلــيق أن يغــرس فيــنا عزيمة قوية ، وإرادةً فتيَّة تمكناننا من التحكم في انفعالاتنا والسيطرة عليها .

إن المؤمــن صـــادق الإيمان لا يخاف إلا الله تعالى وحده ، فلا يجزع من الموت أو الفقر ، ولا يرهب الناس ، ولا يجهل ولا يظلم ، وإن أصابه خير لا يفخر ولايمنع وإن أصابه شر لا يقنط ولا ييأس ، لأنه يعلم أنه لا يصيبه إلا مـــا كتب الله له ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصـــــابه لم يكن ليخطـئــه ، وأن القلـــم قــد جــفَّ بما هو كـــائن ، فكــلٌ مُيسَّر '' لما خُـلق له .

٣- وصف الشيطـــــــان

وصف الشيطانُ بطريق المبالغة بخمسة أوصاف ، وقد سبق الحديث عن هذه الأوصاف مفرقة في مبحث صيغ المبالغة بينما هنا أودُّ أن أجمع شتات هذه الأوصاف ؛ لأنها تشكل منظومة كاملة ، وتصورًا تامًّا لأبرز الصفات التي اتسم بها ، والتي لا رجعة له فيها لأنه منطبع بها ، فلا يُغرُّ به إنسان ، ولا يطمع في هدايته أحد (١) هذه الأوصاف هي :

١- من صيغة " فعَّال " وصف واحد هو : { الخنَّاس } (٢) .

ورد في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ مِن شَرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاسِ ﴾ (٣) .

٢- من صيغة " فعيل " وصفان هما :

عصيًّا : ورد وصفًا للشيطان مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الشيطَانَ كان للرَّحمنِ عَصِيًّا ﴾ (٤) .

---

(١) فقد روي أن موسى – عليه السلام – لقيه ابليس فقال له : يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالته ، وكلمك تكليمًا ، وأنا خلق من خلق الله أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لي إلى ربي أن يتوب عليَّ . فقال موسى : نعم . فلما صعد موسى الجبل ، وكلَّم ربه – عز وجل – وأراد النزول قال له ربه : أدِّ الأمانة . فقال موسى : يارب عبدك ابليس يريد أن تتوب عليه . فأوحى الله إلى موسى : " يا موسى قد قضيت حاجتك مُره أن يسجد لقبر آدم حتى يتاب عليه " فلقي موسى ابليس فقال له : قد قضيت حاجتك أُمرت أن تسجد لقبر آدم حتى يُتاب عليك ، فغضب واستكبر وقال له : لم أسجد له حيًّا أأسجد له ميتًا ؟ ! انظر تلبيس ابليس – ابن الجوزي / ٣٠ .

(٢) { الخنوس : الانقباض والاستخفاء .. وفي الحديث : " الشيطان يوسوس إلى العبد ، فإذا ذكر الله خنس " أي انقبض منه وتأخرَّ .. قال الفرَّاء في قوله تعالى : " من شر الوسواس الخناس " قال : ابليس يوسوس في صدور الناس ، فإذا ذكر الله خنس ، قيل إن له رأسًا كرأس الحية : يجثم على القلب ، فإذا ذكر اللهَ العبدُ تنحىَّ وخنس فإذا ترك ذكر الله رجع إلى القلب يوسوس نعوذ بالله منه } اللسان مادة (خ . ن . س) .

(٣) الناس / ٤

(٤) مريم / ٤٤

، مَريد [١] : ورد بهذا اللفظ مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطانٍ مريدٍ ﴾ [٢] .

وورد بلفظ " مريدًا " مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ وإِن يَدْعُون إلا شَيْطانًا مَرِيدًا ﴾ [٣] .

٣- من صيغة " فعول " وصفان هما :

خذولاً [٤] :

ورد مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَضَلَّني عن الذِّكرِ بعد إذ جَاءني وَكان الشيطانُ للإنسانِ خَذولاً ﴾ [٥] .

، الغرور [٦] :

ورد في القرآن الكريم ثلاث مرات هي :

---

(١) { المارد : العاتي .. وتأويل المُرُود أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف .. وقال ابن الأعرابي : المَرْد : التطاول بالكبر والمعاصي .. والمريد : من شياطين الإنس والجن . وقد تمرَّد علينا أي عتا . ومرد على الشر وتمرَّد ، أي عتا وطغى . والمَريد : الخبيث المتمرِّد الشرير وشيطان مارد ومريد واحد . قال ابن سيده : والمريد يكون من الجن والإنس وجميع الحيوان ، وقد استُعمل ذلك في المَوات فقالوا : تمرَّد هذا البِنَاءُ أي جاوز حَدَّ مِثْلِهِ ، وجَمعُ المارِدِ مَرَدَةٌ } اللسان مادة (م . ر . د) .

(٢) الحج / ٣

(٣) النساء / ١١٧

(٤) { الخاذل : ضد الناصر . خَذَلَه وَخَذَلَ عنه يَخْذُلُهُ خَذْلاً وخِذْلانًا : ترك نُصرَته وَعونه . والتخذيل : حمل الرجل على خِذلان صاحبه ، وتثبيطُهُ عن نُصرته } اللسان مادة (خ . ذ . ل) .

(٥) الفرقان / ٢٩

(٦) { الغرور : الشيطان يَغُرُّ الناس بالوعدِ الكاذب ، والتمنية . وقال الأصمعي الغَرور الذي يَغُرُّك . والغُرور بالضم : الأباطيل } اللسان مادة (غ . ر . ر) . وقال أبو السعود : الغَرور : الشيطان المبالغ في الغُرور . انظر أبا السعود ٧ /٧٧

قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرُورُ ﴾ (١) .

، ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرُورُ ﴾ (٢) .

، ﴿ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بالله الغَرور ﴾ (٣) .

وخُلاصة تلك الصفات { الخنـاس ــ عصيـًا ــ مريد ــ خذولاً ــ الغرور } أنه :

أولاً : مُبالغ في التخفي والتسـتُّر .

ثانيـًا : مُبالغ في العصيان والتأبّي .

ثالثـًا : مُبالغ في التمرُّد والعتـوّ .

رابعـًا : مُبالغ في الخذلان والتوليّ عن النـُصرة .

خامسـًا : مُبالغ في الـُغرور والتمنّي الكاذب .

أولاً : المبالغة في التخفي والتسـتُّر .

فهـو لا ينتهـي أبدًا عن تلبسه بالتسـتُّر والتخفّي سواء بالمفارقة عند الذكر أو عن طريق المعاودة بعد ذلك ، فهو لا يقوى على المواجهة ، ولـيس مأذونـًا له فـيها ، بل هو يوحي بالفكرة والخطرة والنزغة والوسوسـة ، ويكتفـي بهذا وهو لا يطمح في أكثر من ذلك ، بَيْد أنه يبالغ في الاستخفاء حتى لا تكاد تشعر به ، وكأن الوسوسة من محض نفسك ومن كـدّك وصنعك وهو منه براء بعد أن تنحَّى تنحيةَ الحيَّة ، وخَـنَس خـنوس الكلـب وإنما الأمر مرده بعد ذلك إليك ، فإن شئت اسـتجبت لوسوسـته واندرجـت تحـت لوائه وفي قبضته وإن شئت استعصمت فنجَوْت .

---

(١) لقمان / ٣٣

(٢) فاطر/ ٥

(٣) الحديد / ١٤

ثانيـًا : المبالغة في العصيان والتأبِّي .

فهو منطبع على العصيان ، يُكثر من مخالفة أمر مولاه ــ عز وجل ــ فــلا يــنفك عــن المخالفة والتأبِّي والرفض ، وقد بالغ في ذلك أيمــا مبالغة ، وهذا كله ليس في نفسه فقط ؛ بل في مبالغته في إكساب العبد هــذا العصــيان ، والوقــوف ضده في كل سبيل للخير ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾(١) .

{ إن الشــيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمُّ بالخير ، أو يدخــل فيه ، فهو يشتدُّ عليه حينئــذٍ ليقطعه عنه ، وفي الصحيح عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ " إن شيطانــًا تفلــَّت عليَّ البارحة ، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي " (٢) وكلما كان الفعل للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : " إن الشــيطان قعــد لابن آدم بأطرافه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتســلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ، فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطــريق الهجــرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول ، فعصا وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ــ وهو جهاد النفس والمال ــ فقال : تقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المــال ؟ قــال : فعصاه فجاهد " (٣) فالشيطان بالرصد للانسان على طريق كل خير } (٤) .

ثالثــًا : المبالغة في التمرُّد والعتو .

فالشــيطان مارد'' ، قد تطاول بالكبر والمعاصي ، فهو متمرِّد شرِّير عاتٍ ، وهو مَــريد بمعنى أنه بلــغ الغــــاية في العتــوّ والفجور

(١) الاعراف / ١٦
(٢) حديث صحيح ــ أخرجه البخاري وأحمد ومسلم وغيرهم .
(٣) حديث صحيح ــ أخرجه النسائي وأحمد وابن حبــَّان وغيرهم
(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ــ ابن قيم الجــوزية ــ دار الحديث القاهــــرة ط الأولــى ١٩٩١م / ١٠٣

لخــروجه عن طاعة ربه حتى أمر الناس بعبادة غير الله [١] وأصل مــادة (م . ر . د) للملامســة والتجرد ، ومنه " صــرح مُمــرَّد " الــنمل ٤٤ [٢] وكأنــه قد تجرَّد وتمرَّن حتى بلغ النهاية في ممارسة أساليب الشيطنة والإغواء .

فمــنذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض احتدم الصراع الخالد بين أبناء آدم عليه الصلاة والسلام وإبليس عليه اللعنة . وقد صوَّر القرآن الكـــــريم بعض أساليبه وتحــركه المستميت في الإغــواء كما قال عز وجل :

﴿ لَأَقْعُــدَن لهــم صِرَاطك المستقيم﴾ [٣] يعني على طريق الإسلام ، ولأرصــدنهم ولأصــدنهم (ثم لآتينهم من بين أيديهم) يعني من أمر الآخــرة حتى أجعلهم في الشك (ومن خلفهم) لأزيننَّ لهم الدنيا حتى يطمئنوا إليها ، ويركنوا لها (وعن أيمانهم) يعني آتيهم من جهة الدين والطاعة (وعن شمائلهم) يعني من جهة المعاصي " ولا تجد أكثرهم شاكرين " يعني على النعماء [٤] .

رابعــًا : المبالغة في الخِذلان والتوليّ عن النُّصرة .

فهــو كثــير الخذلان لمن اتبعه ، إذ يبلغ الغاية في التخلي عن الأتباع وترك المعاونة والنصرة لهم وقت الحاجة وساعة الطلب ، فهو يعدهم ويمنــيهم ويزين لهم حتى ينخدع الخادعــون بوسوسته ويستجيبوا له حتى يوردهــم المهلك وقد تركهم بلا نصير ، وفي قصـــــة راهــب

---

(١) انظر الصاوي على الجلالين ١ / ٢١٤

(٢) انظر روح المعاني ٥ / ١٤٩

(٣) السياق كله آيتا الأعراف / ١٦ ، ١٧

(٤) انظر إغاثة اللهفان / ٤

بني إسرائيل خير دليل على ذلك (١) ولا شك أن قمة ما يرجوه الشيطان أن يرى الإنسان مخذولاً مخزياً ساعتها يشعر بالفوز والغلبة ، وأنه أدّى وظيفته على خير وجه ، وأحسن موقع فليت الإنسان يتعظ ويتدبَّر .

خامسًا : المبالغة في الغُرور والتمنّي الكاذب .

فالشيطان يَغُـرُّ النّاس بالوَعْد الكاذب والتمنية الزائفة من مالٍ وجاهٍ ، وشهوة بخُبثٍ وخُفْية وتمويه حتى ينطلي على كثيرٍ من المغرورين ، فتراهم يستجيبون لتزيينه ، لأنه يبالغ في الغُرُور مبالغة عظيمة ، فيحملهم حملاً على المعاصي ويُنسِّيهم التوبة والمغفرة أو يعمل على إرجائهما ؛ بل إن من معاني الغرور أن يُطمِّع العاصين في المغفرة وهم يلابسون المعصية لا ينفكّون عنها .

ومن هنا جاءت الآيات القرآنية لتبين غروره في ثلاثة مواضع (٢) وجاءت سياقات قرآنية أخرى تكشف لنا حقيقة ما يريده الشيطان من وراء غروره كما في قوله تعالى :

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيطانُ أَن يُضِلَّهم ضَلالاً بعيدًا ﴾ (٣) .

﴿ إنَّما يُرِيدُ الشَّيطانُ أن يُوقع بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسرِ وَيَصُدَّكم عن ذِكرِ اللهِ وعن الصَّلاة فَهلْ أنتم مُنْتَهون ﴾ (٤) .

---

(١) كان راهب في بني إسرائيل فأخذ الشيطان جاريةَ فخنقها ، والقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب ، فأتى بها الراهب فأبى أن يقبلها فمازالوا به حتى قبلها ، فكانت عنده فأتاه الشيطان ، فسوّل له إيقاع الفعل بها ، فأحبلها ثم أتاه ، فقال له : الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها ! فإن أتوك فقل ماتت ، فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ، ودفنها ، فأتاه أهلها يسألونه عنها ، فقال : ماتت فأخذوه فأتاه الشيطان . فقال : أنا الذي ضربتها وخنقتها ، وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها ، وأنا الذي أوقعتك في هذا فأطعني تنجُ ، اسجد لي سجدتين ، فسجد له سجدتين ، فهو الذي قال عز وجل "كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء" منك إني أخاف الله رب العالمين " الحشر/ ١٦ انظر تلبيس إبليس / ٢٦

(٢) لقمان / ٣٣ ، فاطر / ٥ ، الحديد/ ١٤ انظر ص ٤٦٢ .

(٣) النساء / ٦٠

(٤) المائدة / ٩١

﴿ إِنَّ الشَّيطَانَ لَكُم عَدوٌ فاتَّخذوه عَدوًّا إنَّما يَدْعو حِزْبَه لِيَكونوا من أَصْحابِ السَّعيرِ ﴾ (١) .

وفي هذا بيان'' شافٍ لكل إنسان حتى يأتي يوم القيامة ويقول ما حدَّثنا بعداوته أحد'' ؛ بل سيأتي السؤال من قِبَل الحق تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَد إِليكم يا بَني آدَمَ ألَّا تعبدوا الشَّيطانَ إنَّه لَكُم عدوٌ مُبين'' ﴾ (٢) .

وحيلته في الإغواء والإغراء والغرور واحدة ، يمنح " الطُعم " أولاً حتى إذا اطمأنَّ إليه المغرور انكشفت حقيقته ، وبان قصده في الاستدراج والخِذلان والخزي (٣) .

---

(١) فاطر/ ٦

(٢) يس / ٦٠

(٣) من هذه الصور الإغوائية ما حدَّث به سعيد بن سليمان عن المبارك بن فضالة عن الحسن قال : كانت شجرة تُعبد من دون الله فجاء إليها رجل'' فقال لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضبـًا لله فلقيه ابليس في صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبَدُ من دون الله . قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك مَنْ عبدها ؟ قال لأقطعنها . فقال له الشيطان هل لك فيما هو خير'' لك ! لا تقطعها ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك . قال فمن أين لي ذلك قال أنا لك ! فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئـًا فقام غضبـًا ليقطعها فتمثل له الشيطان في صورته ، وقال ما تريد ؟ قال أريد قطع هذه الشجرة التي تُعبَدُ من دون الله تعالى قال كذبت مالك إلى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله قال أتدري مَنْ أنا . أنا الشيطان جئت أول مرة غضبـًا لله فلم يكن لي عليك سبيل فخدعتك بالدينارين فتركتها فلما جئت غضبـًا للدينارين سُلطتُ عليك . انظر تلبيس ابليس /٣٢

٤- وصف النار وأهلهـــــا

وُصِفت النار ـ بطريق المبالغة ـ بخمسة أوصاف . وقد سبق الحديث كذلك عن هذه الأوصاف مُفـرّقة ؛ كُلٌّ في صيغتها ، لكنها في مجموعها ـ هنا ـ تُشكّل صورةً شبه متكاملة عن النار وهولها المتزايد في صفات بعينها هي :

١- من صيغة " فعَّال " ثلاثة أوصاف هي :

١- غسَّاق (١) : بلفظ " غسَّاق "

ورد في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى :

﴿ هَـذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (٢) . وأخرى بلفظ " غسَّاقـًا " في قوله تعالى :

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابـًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقـًا ﴾ (٣) .

٢- لوَّاحة (٤) :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى :

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (٥) .

٣- نزَّاعة (٦) :

ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴾ (٧) .

---

(١) الغسَّاق : ما يقـطرُ من جلود أهل النار انظر المفردات / ٦٠٦

(٢) ص~ / ٥٧

(٣) النبـأ / ٢٤ ، ٢٥

(٤) أي تحرق الجلد حتى تُسوِّده انظر لسان العرب مادة (ل . و . ج) .

(٥) المدثر/ ٢٩

(٦) الشوى : الأطراف أو جمع شواة وهي جلدة الرأس تنزعها نزعـًا فتتبتكها ثم تعاد مرة أخرى . انظر الكشاف ٤ / ١٣٩

(٧) المعارج / ١٥ ، ١٦

٢- من صيغة " فعيل " وصف واحد : " حميم "

حيث ورد في القرآن الكريم بلفظ " حميم " سبع عشرة مرة (١)

وبلفظ " حميمــًا " ورد ثلاث مرات

ولفظ " الحميم " له ثلاثة معانٍ :

الحميم : القريب .

، الحميم : الماء شديد الحرارة .

، الحميم : المطر الذي يأتي في الصيف حين تَسْخُن الأرض (٢).

وجاء في القرآن الكريم بالمعنيين الأولين فقط ، والمراد ــ هنا ــ في هذا المبحث المعنى الثاني إذ هو وصف'' لشدة حرارة هذا الماء الذي بلـــغ من الغليان الدرجة التي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم حــتى قــيل : " إذا دنــا منهم { هذا الماء المستعر} شوى وجوههم ، وانمارت فروة رؤسهم فإذا شربوه قَطع أمعاءهم } (٣)

٣- من صيغة "فُعَلَة " وصف'' واحد'' : " الحُــطَمة " (٤)

ورد هذا الوصف بهذا اللفظ في القرآن الكريم مرتين في قوله تعالى :

﴿ كَلَّا لَيُنــبَــذَنَّ في الحــُطَــمَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ ما الحــُطَــمَةَ ﴾ (٥)

---

(١) انظر مبحث صيغ المبالغة

(٢) انظر لسان العرب مادة (ح . م . م) .

(٣) أبو السعود ٨ /٩٦

(٤) لأنها تحطم ما تَلــقى ، وقيل : الحُــطَمَــة باب من أبواب جهنم ، وكل ذلك من الحــطْــم الذي هو الكســر والــدق ، والحطمــة من أبنية المبالغة وهو الذي يَكــثــر منه الحــطــم ، ومنه سُمِّيت النار الحــُطــَمــة ، لأنهــا تحطــم كلَّ شيء ، ومنه الحديث : رأيت جهنم يَحــطم بَعــضَــها بعضــًا انظر لسان العرب مادة (ح . ط . م) .

(٥) الهمزة / ٤ ، ٥

وخلاصة تلك الأوصاف : { غسَّاق ــ لوَّاحة ــ نزَّاعة ــ حميم ــ الحطمة } أنها تحمل هذه المعاني :

أولاً : المبالغة فيما يخرج من جلود أهل النار من صديد .

ثانيًا : المبالغة في حرق جلودهم حتى تَسْوَدَّ أو المبالغة في ظهورها.

ثالثًا : المبالغة في نزع الأطراف وفروة الرأس .

رابعًا : المبالغة في شدة حرارة الماء .

خامسًا : المبالغة في التحطيم والتكسير والتهشيم .

أولاً : المبالغة فيما يخرج من جلود أهل النار من صديد .

فأهل النار لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا ، ولا يتجرَّعون إلا هذا الحميم ومعه ذاك الغسَّاق ــ سواء أكان معناه الصديد المُنتن الذي يسيل من جروح أهل النار أم هو ما يسيل من دموعهم ، فقد اختلف المفسرون واللغويون في تحديد مصدر السائلَ هل هو الجُرْح أم العين على قولين [١] ، وقد قيل إن هذا السائل " غسَّاق " يحرقَ ببَرْده كما يحرق الحميم بحره [٢]

ولقد قيل عن نتن هذا الشراب أنه لو قطرت منه قطرة في المشرق لنتَّنتْ أهل المغرب ، ولو قطرت منه قطرة في المغرب لنتَّنت أهل المشرق [٣]

فما أفظع هذا الشراب وأبلغ تأثيره ! ، فإن له تأثيرين ، كلاهما أوجع من الآخر ، أولاهما : أنه حارٌ حارق ، وأخراهما : تَحسُّه الأنف قد بولغ في نتنه إلى الدرجة التي قطرة" منه تُنتنُ مَشْرقًا متباعدًا عنها أو مغربًا ! فالإيلام متنوع ، وفظاعة الشراب متعددة ، إذا استساغ الإنسان

---

(١) انظر الكشاف ٣ / ٣٣٢ ، لسان العرب مادة (غ . س . ق) .

(٢) انظر الكشاف ٣ / ٣٣٢

(٣) نفسه ٣ / ٣٣٢

لونـــا فاجأه الآخرة ، فلا يستطيع ذواقــا ، لذا عبَّر القرآن الكريم عن هذا الوصف أوضح تعبير في قوله عز من قائل :

﴿ وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (١)

ثانيـا : المبالغة في حرق جلودهم حتى تَسْوَدَّ أو المبالغة في ظهورها .

الجمهـور علـى أن معـنى " لوَّاحة " : مُغيِّرةٌ للبشرة ، مُحـرقة للجلـود ، مُسـوِّدة لهـا { تقول العـرب : لاحت النارُ الشـيءَ إذا أحرقته وسـوَّدته } (٢) ، وثَمَّ معنى آخر للوَّاحة { قال الحسن وابن كيسان " لوَّاحة " بـناء **مبالغة** من لاح إذا ظهر ، والمعنى : أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام ، وذلك لعظمها وهولها وزجرها } (٣) .

ومن هنا يكون توجيه المبالغـة وفقـا للمعنى ، على رأي الجمهور أنهـا " تلفـح الجلد لفحة فتدعه أشدَّ سوادًا من الليل " (٤) وعلى الرأي الآخر أنها مـبالغة مـن الظهـور فهي تبدو من بعيدٍ لا تخفى على أحدٍ ، ولهذا نجد سياقـا قرآنيـا آخر يُضفي بعدًا مُتممـا لهذا الظهور ، يملأ الفزع في قلوب الكافريـن فهي ـــ مع كونها باديةً لا ينحجبُ عنها أحدٌ من الملحدين ـــ تـراهم وتعـرفهم ! فتلتقطهم كما يلتقط الحبُّ كما قال عز من قائل : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيدٍ سمعوا لها تغيظـا وزفيرًا ﴾ (٥)

ولم يرجِّح " ابن جُزي " في " التسهيل " بين المعنيين ـــ كعادته ـــ وإنما الذي رجَّـح بيـنهما " الصـاوي " (٦) فاختار الأول { رأي الجمهور } على أنه الأقـرب ، والـذي أراه تـرك الترجيح لاحتمال المعنيين وفقـا للسـياق القرآني ، لأن المقام مقام تخويف ، ورؤية النـار من بُعد بما تحمله مـن

---

(١) ابراهيم / ١٦ ، ١٧

(٢) البحر المحيط ٨ /٣٦٧

(٣) نفسه ٨ / ٣٦٧

(٤) أبو السعود ٩ / ٥٨

(٥) الفرقان / ١٢

(٦) انظر الصاوي على الجلالين ٤ / ٢٢٥

دلالات الفظاعة والهول وارد" مقصود لإرعاب المشركين والله أعلم .

ثالثـًا : المبالغة في نزع الأطراف وفروة الرأس .

قال عزَّ من قائل : ﴿ كَلَّا إِنَّها لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ (١) و " نزّاعة " بناء للمبالغة من النزع وهو الاقتلاع ، والجذب بشدة (٢) حتى إنها لتـنـزعُ لشدة حَرِّها الأطراف ، أو تنزع فروة الرأس انتزاعـًا ، فتبتكها ثم تعادُ مرة أخرى قال الضحاك : تفري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئـًا (٣)

إن هـذه الصـورة مكملة لسابقتها فهي ــ بعد أن كانت لوّاحة أي بادية أو محـرقة ــ هـنا هي نزّاعة ، تقتلع من الإنسان أطرافه ومفاصله وجلـدة رأسـه ، وهـنا يبدو المشهدُ أشدَّ صعوبةً وفتكـًا على الكافرين ، كما أنه يُعطـي دلالـة قاطعة على فداحة الغُرْم ، وسوء المُنقلب بما لا يدع مجالاً للشـك أن الكافريـن قد دخلوا معترك الإيلام ، وانخرطوا في سلك العذاب المُهين .

وهـنا .. خلال تلك المشاهد المتلاحقة .. المؤثرة .. قد تتراءى للكافر فكرة الهـروب أو الاختفاء والانزواء في مكان مُستتر بعيدٍ عن رصد النار له .. وهـنا يأتـي السـياق القرآنـي معلنـًا معرفتها التامة بالكافرين وسمتهم ، والمشـركين وهيـئاتهم ، والملحدين وتحركاتهم ﴿ تدعو من أدبر وتولَّى * وجمع فأوعى ﴾ (٤)

تدعوهـم وتملأ آذانهم بلسان فصيح : إليَّ يا كافر .. إليَّ يا منافق .. إليَّ يا فاسـق .. عندئذٍ ، عندما يُسقط في أيديهم ﴿ يَودُّ المجرمُ لو يَفْتَدي من عذابِ يَومِـئذٍ بِبَنِـيه * وَصَاحِبتِهِ وأخِيه * وَفصِيلته التي تُؤْيِه * وَمَن في الأرضِ جَميعًا ثم يُنجيه ﴾ (٥)

---

(١) المعارج / ١٥ ، ١٦

(٢) انظر المفردات / ٧٩٨

(٣) انظر القرطبي ١٠ / ٧٠١٤

(٤) المعارج / ١٧ ، ١٨

(٥) المعارج / ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤

رابعـًا : المبالغة في شدة حرارة الماء .

قال تعالى : ﴿ لَهُم شَرَاب'' مِن حَمِيم ﴾ (١) ، ﴿ وَسُـقوا مَـاءً حَمِـيمًا فقطَّـع أمعـاءهم ﴾ (٢) حيث يُسقى الكافرون ماءً حـارًا شـديد الغلـيان ، فقطّـع أحشاءهم من فرط حـرارته حتى قيل من المبالـغة في الغليان : إذا دنا منهم { هذا الماء المستعر } شوى وجوههم ، وانمارت فروة رءوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم (٣) .

خامسًا : المبالغة في التحطيم والكسير والتهشيم .

إنها " الحُطَـمَة " ، التي تحطم كل شيء تلقاه أمامها ، وبإمكانها تهشيم أضـخم شـيء وأعظمه ، فلا يقوم لها شيء ، إذ من خصائصها تفتيت أي صُلب قال ابن منظور : { الحطمة : من أبنية المبالغة ، وهو الذي يَكـثُـرُ مـنه الحَطـْم ومنه سُمِّيت النار الحُطـَمة ، لأنها تحطم كـُلَّ شيء ، ومنه الحديث : رأيت جهنم يَحـْطِمُ بَـعْضُها بـَعضـًا } (٤) .

إنها الحطمة التي تحطم العظام ، وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب . إنها ـ كما هو ظاهر ـ نار'' مُـحَطـِّمَة كل ما تلقاه من شدة البطش ، والغيظ والـحنَق أضف إلى ذلك ـ عند تتابع السياق القرآني ـ أنها بعد التحطيم ، والكسـر تتطرق إلى الأفئدة ﴿ التي تَـطَّلع على الأفئدة ﴾ (٥) حيث { تدخل فـي أجوافهـم حتى تصل إلى صدورهم ، وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلـوب ولا شـيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألمـًا منه بأدنى أذى يَمسُّه فكيف إذا اطلعت عليه نار جهـنم واستولت عليه } (٦)

---

(١) الأنعام / ٧٠

(٢) محمد / ١٥

(٣) انظر القرطبي ٩ / ٦٢٨٨ ، ابا السعود ٨ /٩٦

(٤) لسان العرب مادة (ح . ط . م) .

(٥) الهمزة / ٧

(٦) الكشاف ٤ / ٢٣٣

وإيحـــاء المبالغة في " الحطمة " يشي بالرعب منها ، واجتلاب ألوان الفزع والخــوف مـــن قـــرعها وتحطيمها ـ ولعلك هنا ـ تدرك الآن قدر الرهبة المطلوبة التي ينبغي أن تتوافر لدى المتلقي عند سماعه لقوله تعالى :

﴿ وبُرِّزت الجحيمُ للغَاوين ﴾ (١)

﴿ وَبُرِّزَت الجَحيمُ لِمَنْ يَرَى ﴾ (٢)

بهـذا الثقل ، وتلك الأبعاد : نزّاعة ـ لوّاحة ـ حُطَمة ... ينبغي الحذر منها ويأتي في هذا الصدَّد قوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذين آمنوا قُـــوا أَنفُسَــكم وَأَهْلِيكم نَـــارًا وَقُودها النَّاسُ والحجارَة ..﴾ (٣)

---

(١) الشعراء / ٩١

(٢) النازعات / ٧٩

(٣) التحريم / ٦

ثانيــــا : الإعجاز الفقهي

ثمة مسائل فقهية أدت من خلالها المبالغة بيانًا شافيًا يؤيد '' رأيًا مَقيلاً ، أو وجهًا مُختارًا ، أو وجْهةً مُتَّبعةً ، فهي تقوم دليلاً مُرجِّحًا للآراء المختلفة حول المسألة الواحدة .

ولا ريب أن مثل هذه المسائل ليس بالكثير ، وإنما جاءت عَرَضًا ولِمامًا لأن " المبالغة " في الأصل أداة بلاغية ، وطريقة بيانية ، والفقه أحكام مستنبطة من أدلتها التفصيلية ومن هنا قلما يلتقيان ؛ لأن الأحكام تعتمد ـ غالبًا ـ على الأسلوب الخبري التقريري المباشر ، فهما ـ إذن ـ خطان متوازيان وليسا متلاقيين إلا نُزرًا .

وهذه بعض المسائل جمعتها في هذا المبحث للمبالغة فيها تعلُّق بالأحكام وترجيحها :

المسألة الأولى :

هل يجب على المرأة أن تغتسل بعد انقطاع دم الحيض أم لا ؟

المبالغة عضّدت أدلة وجوب الغسل وأن الواجب على المرأة أن تغتسل بعد انقطاع الدم (١) وهذا رأي الجمهور .

قال تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ (٢) .

---

(١) تَكَسَّلُ بعض النساء عند انقطاع دم الحيض ـ إن أردن المجامعة ـ عن الغُسل ؛ فيواطئن أزواجهن بدونه ، بحجة أنهن لا يردن أن يجمعن على أنفسهن غسلين في آنٍ واحدٍ ُغسلٍ قبل الوطء ، وغسلٍ بعده للتطهر من الجنابة ، ويتكئن في ذلك على ما ورد عن أبي حنيفة في حِلِّ الوطء عند انقطاع الدم بلا ُغسل وذلك لأكثر الحيض . انظر المغني لابن قدامة .. دار الغد العربي ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ١ /٣٧٠ ، الكشاف ١ / ١٣٤ ، التسهيل ١ / ٨٠ والظاهر أن رأي أبي حنيفة لا دليل له ، وأن الحجة مع الجمهور لظاهر قوله تعالى " ولا تقربوهن حتى يَطْهُرن " ولقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغتسلي وصلي " متفق عليه .

قال ابن قدامة : { فأما الوطء قبل الغُسل فهو حرام في قول أكثر أهل العلم قال ابن المنذر هذا كالإجماع } انظر المغني ١ / ٣٧٠

وقال الشافعي في الأم : { قال الله تبارك وتعالى " ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض " .. أبان عز وجل أنها حائض غير طاهر ، وأمر أن لا تقرب حائض حتى تطهر ، ولا إذا طهرت حتى تتطهر بالماء وتكون ممن تحل لها الصلاة ولا يحل لامرئٍ كانت امرأته حائضًا أن يجامعها حتى تطهر } الأم ـ للإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ـ دار الغد العربي ـ ط الأولى ١٩٨٩م ـ ١٤٠٩ هـ ١ / ١١٠

(٢) تمام الآية : " ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرن فإذا تَطَهَّرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يُحب التوابين ويُحب المتطهرين " ==

قرأ حمزة والكسـائي وعاصم في رواية أبي بكـر والمفضل عنه (يَـطَّهَّرْن) بتشديد الطاء والهاء والفتح [١] وأصله يتطهرن ، وكذا هي في مصحف أُبيّ وعبد الله ، وقرأ الباقون من السبعة (يَـطْهُرْن) مضارع طهر ، في مصحف " أنس " { ولا تقربوا النساء في محيضهن واعتزلوهن حتى يتطهرن } [٢].

ومن هنا اكتسبت الصيغة "يَـطْهُرْن" المبالغة بالتشديد ، وهذه المبالغة التي تمثلت في التشديد [٣] رجَّحت رأي الجمهور في أن المقصود من الـطُهر في الآية : انقطاع الدم والغسل معًا ورجَّح الطبريّ قراءة التشديد ، وقال : هي بمعنى يغتسلن لإجماع الجميع على أنه حرام على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر [٤].

قال ابن منظور : { الـطُّهر : نقيض الحيض .. وَطهُرَت المرأة ، وهي طاهر : انقطع عنها الدَّم ، ورأت الـطُهر ، فإذا اغتسلت قيل : تطهَّرتْ واطـَّهرَّت .. وروى الأزهري عن أبي العباس أنه قال في قوله عز وجل : ﴿ ولا تقربوهن حتى يَـطْهُرن فـإذا تطـَّهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ ؛ وقرئ : ﴿ حتى يَـطَّهرَّن ﴾ ، وقال أبو العباس : والقراءة يَـطْهُرن ، لأن من قرأ يَـطْهُرن أراد انقطاع الدم ، فإذا تَـطَـهَّرن اغتسلن ، فصيَّر معناهما مُختلفـًا } [٥].

• == البقرة / ٢٢٢ ، والمقصود اجتناب معاشرة النساء في حالة الحيض حتى ينقطع عنهن دم الحيض ويغتسلن وفقـًا لرأي الجمهور ، كما ينبغي الالتفات إلى أن الغرض عدم المعاشرة لا عدم القرب منهن وعدم مؤاكلتهن ومجالستهن كما كان يفعل اليهود . انظر البحر المحيط ٢ / ١٧٦

(١) انظر كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد ـ تحقيق د . شوقي ضيف / ١٨٢ ، البحر المحيط ٢ /١٧٨

(٢) انظر البحر المحيط ٢ / ١٧٨

(٣) التشديد كما مـرّ في الفصل الأول أداة من أدوات المبالغة .

(٤) انظر البحر المحيط ٢ / ١٧٨

(٥) لسان العرب مادة (ط . هـ . ر) .

ولا ريب أن المبالغة بالمعنى الذي سار عليه البحث وهو الوصول بالمعنى إلى أقصى معانيه قد أصاب الغاية في الحُسن في هذا الموضوع ، إذ إن المرأة إذا انقطع عنها الدَّمُ طَهُرت ــ ما في ذلك شك ــ بَيْدَ أنها إذا أرادت المبالغة والتقصِّي في الطُّهر تطهَّرت بالماء ، وهذا هو المنشود من الحكم الفقهي لتلك الآية المحكمة . والله أعلم .

المسألة الثانية :

ما دلالة وصف الماء بالطَّهور بصيغة المبالغة في القرآن الكريم ؟

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلنا من السَّماء مَاءً **طَهُورًا** ﴾ (١) .

فالماء عند أهل العلم ينقسم قسمين من حيث كونه طاهرًا :

الأول : طاهر '' مُطهِّر '' لغيره وهو " الطَّهور " وهذا يمثل الأعلى درجة من حيث الطهارة وبه يصح الوضوء ، كماء البحر والنهر والسماء والعين .

الآخر : طاهر غير مُطهِّر لغيره : كماء الورد والعطور والمسك والماء المختلط بالصابون وهذا على الرغم أنه طاهر إلا أنه غير مُطهِّر لغيره (٢) .

قال ابن جزي في شرحه للآية السابقة : { " ماء طهورًا " : **مبالغة** في طاهر وقيل معناه : مُطهِّر ، وكل مُطهِّر طاهر ، وليس كل طاهر مُطَهِّر } (٣) .

---

(١) الفرقان / ٤٨ ، قال ابن منظور { كل طهور طاهر ، وليس كل طاهر طهورًا . قال الأزهري : وكل ما قيل في قوله عز وجل : " وأنزلنا من السماء ماء طهورًا " فإن الطهور في اللغة هو الطاهر المطهِّر ، لأنه لا يكون طهورًا إلا وهو يتطهر به ، كالوضوء هو الماء الذي يتوضأ به ... وسئل رسوله الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن ماء البحر ، فقال : هو الطَّهور ماؤه ، الحِلُّ ميتته ، أي المُطهِّر ، أراد أنه طاهر '' يُطهِّر { . وقال الشافعي ــ رضى الله عنه ــ كل ماءٍ خلقه الله نازلاً من السماء ، أو نابعًا من عين في الأرض أو بحرٍ لا صنعة فيه لآدمي ، ولم يتغير طعمه منه ، فهو طهور كما قال الله عز وجل وما عدا ذلك من ماء وردٍ ، أو ورق شجر ، أوماء يسيل من كرْم فإنه ــ وإن كان طاهرًا ــ فليس بطهور } لسان العرب مادة { ط . هـ . ر } .

(٢) انظر الأم للشافعي ١ / ٣٦

(٣) التسهيل ٣ / ٧٩ ، ٨٠ ، وانظر البيضاوي ٢/١١٣ ، أبا السعود ٦ / ٢٢٤ ، الكشاف ٣/١٠٠ ، روح المعاني ١٩/٣٠

وقال القرطبي : { إن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه ، مُطهِّر لغيره فإن الطهور بناء **مبالغة** في طاهر ، وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرًا مُطهِّرًا وإلى هذا ذهب الجمهور } [١] .

وأكّد ابن عاشور هذا المعنى وبيّنه بقوله : { الطَّهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال : رجل صبور . وماء المطر **بالغ منتهى** الطهارة إذ لم يختلط به شيء يُكدِّره أو يُقذِّره وهو في علم الكيمياء أنقى المياة لخلوه من جميع الجراثيم فهو الصافي حقـًا ، والمعنى : أن الماء النازل من السماء هو **بالغ الطهارة** في جنسه من المياه ، ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مُطهِّر لغيره ، إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فعول **لزيادة** معنى في الوصف } [٢] .

وَبيِّن '' أن دور المبالغة في اللفظة " طهور " أبرز جانب تَقَصِّي الطهر فيه ، وبلوغه المُنتهى كما أشار ابن عاشور ، فصحَّ فيه أنه طاهر '' في نفسه ، مُطهِّر '' لغيره ، بينما اقتصر الماء الطاهر على كونه طاهرًا في نفسه فقط ، وليس مطهِّر لغيره . مما أسهم بدوره في الفقه في تحديد نوع الماء المنوط به التطهر استعدادًا للصلاة وللعبادة .

المسألة الثالثة :

حتى متى ينتهي إفطار الصائم ليبدأ صيام يومٍ جديدٍ ؟

قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لكم الخيْطُ الأبيضُ من الخَيْطِ الأسودِ من الفجرِ ﴾ [٣] .

ويبدو أننا في مصر مازلنا حتى الآن نأخذ بالأحوط ، فيتوقف الناس تمامًا عن الأكل والشراب بمجرد سماع آذان الفجر .. هذا إن كان على سبيل الضبط والاحتراز فلا حرج ! أما على سبيل التحقيق فمازال بعد الفجر فيه مُتَّسع حتى يُسفر النهار جيـدًا بدلالة قوله تعالى : ﴿ حتى يتبين ﴾ .

---

(١) القرطبي ٧ / ٤٩١٦

(٢) التحرير والتنوير مجلد ٩ ١٩ / ٤٧

(٣) البقرة / ١٨٧

قال ابن قدامة في المغني : { والصوم المشروع هو الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر **الثاني** إلى غروب الشمس وروي معنى ذلك عن عمر وابن عــباس وبه قال عطاء وعوام أهل العلم وروي عن على رضي الله عنه أنه لمّا صلى الفجر قال الآن حين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وعن ابــن مســعود نحوه وقال مسروق لم يكونوا يَعُدُّون **الفجر فجركم إنما كانوا يعــدون الفجر الذي يملأ البيوت والطرق** وهذا قول الأعمش . ولنا قول الله تعــالى : ﴿ حــتى يتبين لكم الخيط الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر﴾ . يعنــي بياض النهار من سواد الليل وهذا يحصل بطلوع الفجر قال ابن عبد البر في قول النبي ــ صلى الله عليه وســلم ــ { إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشــربوا حــتى يــؤذن ابن أم مكتوم } دليل على أن الخيــط الأبيض هو الصَّباح } (١) .

وعــن سُــمرة عــن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : { لاَ يَغُرَنَّكم في سحوركم آذان بلال ، ولا بياض الأفق المستطيل حتى يستطير } (٢) .

ومــن هنا فالفجر فجران : كاذب : وهو المستطيل المستدقُّ الذي يُشبَّه بذَنَبِ السِّرحان .(٣) .

وصــادق : وهــو المستطير المنتشر ضوءه في الأفق ، المتجلــِّي بوضوح للــناس ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ يتبين **لكم** ﴾ أي يبدو جليــًّا لكم ، تبدو آثــاره فــي الوهدات والنجدات ، وليس مقصورًا فقط على علماء الفلك الذي يرصدونه بآلاتهم وحساباتهم .

---

(١) المغني ٣ / ٢٨٥ ، ٢٨٦

(٢) رواه مسلم .

(٣) انظر لسان العرب مادة (ط . ي . ر) .

قال سيد قطب في شرحه للآية – كما أشرتُ من قبل في أكثر من موضع – { حتى ينتشر النورُ في الأفق وعلى قمم الجبال ، وليس ظهور الخيط الأبيض في السماء وهو ما يُسمَّى بالفجر الكاذب . وحسب الروايات التي وردت في تحديد وقت الإمساك نستطيع أن نقول : **أنه قبل طلوع الشمس بقليل** . وإننا نمسك الآن وفق المواعيد المعروفة في قطرنا هذا قبل أوان الإمساك الشرعي ببعض الوقت ربما زيادة في الاحتياط } [١] .

وأكد هذا الرأي ما كتبه الألباني في تمام المنة تعليقًا على ما سطره سيد سابق في فقه السُنّة حيث قال : { قوله تحت هذا العنوان : " فإذا طلع الفجر وفي فمه طعام وجب عليه أن يلفظه . قلت : هذا تقليد لبعض الكتب الفقهية ، وهو مما لا دليل عليه في السُنّة المحمدية ، بل هو مخالف لقوله – صلى الله عليه وسلم – : { إذا سمع أحدكم النداء والإناء على يده فلا يضعه حتى يقضي حاجته منه } أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه هو والذهبي وأخرجه ابن حزم .. وفيه دليل على أن من طلع عليه الفجر وإناء الطعام أو الشراب على يده ، أنه يجوز له أن لا يضعه حتى يأخذ حاجته منه ، فهذه الصورة مستثناة من الآية ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين

لكم الخيط الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر﴾ فلا تعارض بينها وما في معناها من الأحاديث ، ولا إجماع يعارضه بل ذهب جماعة من الصحابة وغيرهم إلى أكثر مما أفاده الحديث وهو جواز **السحور إلى أن يتضح الفجر** ، **وينتشر البياض في الطرق** .. وإن من فوائد هذا الحديث إبطال

---

(١) الظلال ١ / ١٧٥

بدعــة الإمساك قبل الفجر بنحو ربع ساعة لأنهم إنما يفعلون ذلك خشية أن يدركهم أذان الفجر وهم يتسحرون ولو علموا هذه الرخصة لما وقعوا في تلك البدعة فتأمّل } (١) .

ونقل السيد أحمد صقر في تحقيقه لكتاب تأويل مُشْكـِلِ القرآن عن الطحاوي في (شرح معاني الآثار) الآتي : { عن ذر بن حبيش قــال : " تسحرتُ ثم انطلقت إلى المسجد ، فمررت بمنزل حذيفة فدخلت عليه فأمر بلقحــةٍ (ناقة حديثة العهد بالولادة) فحُلِبت ، وبقِدْرٍ فسُخِّنت ، ثم قال : كُل . فقلتُ : إني أُريد الصوم . قال : وأنا أُريد الصوم . قال : فأكلنا ثم شربنا ، ثم أتينا المســجد ، فــأُقيمــت الصلاة . قال : هكذا فعل بي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أو صنعت مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قلتُ : بعد الصبح ؟! قال : بعد الصبح ، غــير أن الشمس لم تطلع} (٢) .

وإذا ضممنا ما قاله ابن قدامة ، وسيد قطب ، والألباني ، وما نقله السيد أحمد صقر اتضح لنا الآتي :

أولاً : لا يجــوز الإمســاك قبل الفجر بنحو ربع ساعة ، أو أزيد خشية إدراك الناس أذان الفجر وهم يتسحرون ، لأن ذلك بدعة .

ثانــيـًا : مــراعاة تطبيق حديث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ " إذا سمع أحدكــم النداء والإناء على يده فلا يضعه حتى يقضي حاجته منه " بالغـًا ما بلغ فإن هذا هو السُــنَّة .

ثالــثــًا : وهو المقصود من هذه المسألة أنه يجوز للصائم الطعام والشراب حتى ينتشر البياض في الطرق ويملأ البيوت وهذا القول من الفقهاء يتوازى مــع مفهوم المبالغة في السياق ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُـم ﴾ . أي يتضح لكم بما لا يدع مجالاً للشك أن النهار قد بان وانتشر أما إمساك الناس قولاً واحدًا عند الفجر فهذا ــ في رأيي ــ أضبط للمسألة ولكنه ليس الأفقه .

---

(١) تمــام المنة في التعليق على فقه السنة تأليف محمد ناصر الدين الألباني ــ دار الراية ــ ط الخامسة ١٤٢٦هــ ــ ٢٠٠٥م / ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٢) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر هامش / ٤٦.

المسألة الرابعة :

هل هناك حدٌّ أعلى للصداق ؟

قال تعالى : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا ﴾ (١) .

قال ابن جُزي : { " قنطارًا " مثال على جهة **المبالغة** في الكثرة ، وقد استدلت به المرأة على جواز المغالاة في المهور حين نهى عمر بن الخطاب عن ذلك فقال عمر رضي الله عنه امرأة أصابت ، ورجل أخطأ ، كل الناس أفقه منك يا عمر } (٢) .

وقد دلّت المبالغة في السياق " قنطارًا " ــ بما لا يدع مجالاً للشك ــ على أنه لا حدَّ لنهاية الصداق ، وأن الأمر مفتوح حسب سعة الرجل وقدرته ، ولا يجوز لوليٍّ أو عالمٍ أن يُحدِّد ما جعله الله مطلقًا ولا أن يخصص ما جعله الله عامًا قال ابن عاشور : { القنطار هنا **مبالغة** في مقدار المال المُعطى صداقًا أي مالاً كثيرًا ، كثرةً غير متعارفه . وهذه **المبالغة** تدل على أن إيتاء القنطار مباح شرعًا ، لأن الله لا يمثل بما لا يرضى شرعه مثل الحرام } (٣) .

فجاءت المبالغة لتبين لنا هذا الأمر إلى الدرجة التي يُعلنها عمر بن الخطاب ــ صراحة ــ أنه قد أخطأ وأصابت امرأة ، بل يذكر بلا مواربة : كل الناس أفقه منك يا عمر ــ هكذا شهد عمر للمرأة بالفقه لأنها استنبطت الحكم من السياق في أن الأمر مُطلق ، فلا يصح تخصيصه ولا تحديده والله أعلم .

---

(١) تمام الآية : (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بُهتانًا وإثمًا مبينًا) النساء / ٢٠

، قال ابن منظور : { القنطار : معيار ، قيل : وزن أربعين أوقية من ذهب ويقال : ألف ومائة دينار ، وقيل : سبعون ألف دينار ، وهو بلغة بَربَر ألف مثقال من ذهبٍ أو فضة ، وقال ابن عباس : ثمانون ألف درهم ، وقيل هي جُملة "كثيرة" مجهولة من المال ، وقال السُّدِّي : مائة رطل من ذهب أو فضة ، وهو بالسريانية ملءُ مَسك ثورٍ ذهبًا أو فضة ، ومنه قولهم قناطير مقنطرة . وفي التنزيل العزيز " والقناطير المقنطرة .... " وروى أبو هريرة عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : القنطار اثنا عشر ألف أوقية ، الأوقية خير" مما بين السماء والأرض . وروى ابن عبَّاس عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : من قرأ أربعمائة آية كتب له قنطار ، القنطار مائة مثقال ، المثقال عشرون قيراطًا ، القيراط مثل أُحد } لسان العرب مادة (ق . ن . ط . ر) .

(٢) التسهيل ١ / ١٣٥ ، وانظر الكشاف ١ / ٢٥٨ ، البيضاوي ١ / ٢٠٧

(٣) التحرير والتنوير مجلد ٣ جزء ٤ / ٢٨٩

المسألة الخامسة :

القوامـــة ــ هل تتساوى المرأة مع الرجل ؟ !

قال تعالى : ﴿ الرِّجالُ قَوَّامون على النِّساء بما فَضّلَ اللَّهُ بَعْضَهم على بعضٍ وبِمَا أنْفَقوا مِن أموالهم ﴾ (١) .

إيــراد الجملــة اســمية ، والخبر على صيغة **المبالغة** للإيذان بعراقتهم في الاتصـــاف بما أسند إليهم ، ورسوخهم فيه (٢) ، وعلــل ذلك بأمرين وهبى وكســبى فقـــال تعـــالى : ﴿ بما فضَّل الله بعضهم على بعض ﴾ أي بسبب تفضيله تعالى الرجال على النساء بكمال العقل وحُسن التدبير ، ومزيد القوة فـــي الأعمـــال والطاعـــات ، ولذلك ُخصوا بالنبوة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر ، والشهادة في مجامع القضايا ، ووجوب الجهاد والجمعة والخطابة والرمي والاعتكاف ، والحمالة والقسامة وانتساب الأولاد والوطء بملك اليمين والتعصــيب وزيـــادة الســـهم في الميراث (٣) وهذا هو الشـــق الوهبي أما الكســـبي ففـــي قولـــه تعالى : ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أي في نكاحهن كالمهر والنفقة .

ومـــن هـــنا جـــاءت صيغة المبالغة " قوامون " لتعدل الميزان الذي قد شال فالنســـاء مهمـــا تكاملن ، وتفاضلن ، لا يتساويْن مع الرجال ، فإنهن يختلفن عـــنهم هيئة وخلـــقة وفِطـــرة . وإن تعجب فاعجب لحال ما يدور الآن في عصـــرنا الحديـــث مـــن صرخات مدوِّية تنادي بالتساوي التام بين الرجـــل والمرأة ، وللأسف وجدت هذه الصرخات بعض الآذان الصاغية التي تنادي بالعدل اللازب والمساواة الحتمية بين الجنسين .

---

(١) النساء / ٣٤

(٢) انظر أبا السعود ٢ / ١٧٣

(٣) انظر البحر المحيط ٣ / ٢٤٩ ، البيضاوي ١ /٢٤٢

(٤) قـــال ابـــن عـــباس " قوامـــون " مســـلطون على تأديب النساء في الحق . البحر المحيط ٣ / ٢٤٩ وقـــــال ابـــن ُجـــزي : { قوَّام بناء **مبالغة** من القيام على الشيء والاستبداد بالنظر فيه ، قال ابن عبَّاس : الرجال أمراء على النساء } التسهيل ١ / ١٤٠ .

فجاء هذا الأسلوب القرآني بما يحمله من صيغ وأدوات بلاغية منها **المبالغة** لكـــي يضع الأمور في نصابها ، ويُعطي كل جنس ما أُهـــّل له فالمرأة وإن اســـتغنت مـــالاً وجاهـــاً يُعدُّ من الظـــّلم البيِّن تحمُّلها فوق ما تطيق من المســـئولية والقوامـــة وقـــيادة سفينة الأسرة في خضم الحياة وإنما هذا دور الـــرجل وطبيعـــته التي خلقه الله عليها من الجَـــلَـــد والصبر والتحمل وهي تخـــتص بالإشفاق والحنو على أولادها ورعاية بيتها فهذا هو السبيل الأسمى لرسالتها وما كان بَعـــدُ فهو ثانويٌّ هامشيّ .

ولا يصـــح ــ وهذا الهدي هدينا ــ أن نصغى إلى صيحات شرقية أو غربية وإنمـــا نصغى لشرعنا الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيلٌ من حكيم حميد والله الهادي إلى سواء السبيل .

(٢) الخصائص العامة للمبالغة في القرآن الكريم

تمـيَّزت المبالغة في القرآن الكريم ببعض السمات والخصائص العامة يمكن حصرها في النقاط الآتية :

١- المبالغة في القرآن بديعة مقبولة ، لا تحسُّ ساعة أن تسمعها بنكارة ، أو نفور ؛ بل تشعر بمدى تأثيرها كلما عاودت التلاوة والتدبر ، على عكس قول الشعراء ، فقد تجد له مبالغة في موطن لكنك قد تفقدها في حينٍ آخر كما في قول الشاعر :

وَنُكرِمُ جَارَنا مَادام فِينَا   وَنُتبِعُه الكَرامةَ حَيْثُ مَالَا

فـإن إكـرام أي فـرد ــ الآن ــ أضحى مُتَيَسَّرًا بفضل التقنيات الحديثة ، وآلات الاتصال المُعقَّدة في عصرنا الحديث .

٢- تعلَّقـت المـبالغة في بعض مواضعها في القرآن الكريم ببعض الأدوات اللغويـة التي ضبطها اللغويون ، ووظّفها البلاغيون ، فقد أسهمت بقدر بَيِّن في كشف بعض جماليات المبالغة مثل : بل ــ حتى ــ لو ــ مهما .

٣- ثمـة طرائق أخرى عملت على إبراز المبالغة مثل الصفة المُشبَّهة التي تضـمنت معنى المبالغة ، والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي ، ووضع المصدر موضع الصفة ، وتغاير القراءات .

٤- وظّفـت فـي القـرآن الكـريم كثير'' من الأساليب الإنشائيـة مثل الاستفهام ، والأمر ، والنهي ، وكذا الخبرية مثل النفي والتوكيد لإظهار فنية المبالغة وبيان إعجازها .

٥- يـتجلّى إعجـاز النظم الحكيم في دائرة الإيقاع في المواءمة الدقيقة بين جمـال الشـكل ، والمضـمون ، فـإذا أنعمت النظر في تناسب الفصول ، والمقاطع ، خلت أن الأسلوب القرآني يعمد إليه ويتوخّاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وفقـًا لثوابت المعاني وحركتها في الأذهان .

٦- أبرزت المبالغة في القرآن الكريم إعجاز وكمال بعض أسماء الله الحسنى سواء في صفات الجمال أو في صفات الجلال .

٧- حفلت مبالغات القرآن ـ في الصيغة ـ بتسجيل نوازغ النفس ، ورغائبها وما ُجبلت عليه ، حيث صورت المبالغة طبيعة النفس في جزعها ، وجهلها ، وظلمها ، وتعجلها ، وفخرها ، وكنودها ، وهلعها .... إلخ .

٨- رصدت المبالغة في القرآن الكريم أبرز صفات الشيطان في التخفّي والتسُّتر ، والعصيان والتأبـِّي ، والتمرد والعتوّ ، والخذلان والتولـِّي عن النصرة .... الخ .

٩- أظهرت المبالغة في القرآن الكريم بعض صفات النار فهي لـوَّاحة ، نزاعة ،ُحطَمة ... الخ .

١٠- من مبالغات القرآن المبتكرة : " الريح العقيم " [١] ، " اليوم العقيم " [٢] ، " بَلَغَت القلوبُ الحناجرَ " [٣] ، " يُريدون أن **يُطفئوا نورَ الله بأفواههم** " [٤] ، " وَيَدعُ الإنسانُ بالشرِّ دُعاءه بالخير " [٥] ، " غَمَرات المَوْتِ " [٦] ، " طَائِره في عُنقه " [٧] ... الخ .

---

(١) سورة الذاريات / ٤١
(٢) سورة الحج /٥٥
(٣) سورة الأحزاب /١٠
(٤) سورة التوبة /٣٢
(٥) سورة الإسراء /١١
(٦) سورة الأنعام ٩٣
(٧) سورة الإسراء /١٣

نتائج البحث

فـــي ختام هذا البحث يجدر بي أن ُأقدِّم عرضـــًا موجزًا يتضمن أهم النقاط التي تناولها البحث ، وما توصل إليه من نتائج .

اقتضــت طبــيعة هــذا البحــث أن أمَهِّد له بالحديث عن مصطلح المبالغة ومفهومهــا عند القدماء ، ما تعلــَّق بها من مصطلحات ، وتناولت علاقتها بالصدق والكذب ، وعلاقتها بالمستحيل والممتنع والممكن ، وأبنت ما تفرَّدت به مبالغات القرآن .

كذلــك أظهــرت الدراسة أن المبالغة ثابتة في القرآن الكريم كله في الصيغة والتركيــب والتصوير ، وأنها بلغت الغاية في كل ذلك ، وذلك دفعــًا ـــ لما أنكره بعض الناس من وجود المبالغة في القرآن .

كمــا ألمحــت الدراسة إلى الإعجاز اللغوي مُمَثــَّلاً في معنى المبالغة في بعــض أســماء الله الحُسنى ، ووصف النفس البشرية ، ووصف الشيطان ، ووصــف النار ، كذلك تمَّ إلقاء الضوء على أداء المبالغة في بعض المسائل الفقهــية ، وكشــف النقاب عن بعض الخصائص العامة للمبالغة في القرآن الكريم .

ومــن هنا تندفع الشبهة القائلة بإنكار المبالغة في القرآن الكريم ، وأحسب أن يكــون البحــث قد قدَّم أدلة جوهرية ، وطرائق فنية متعددة من صلب آيات القــرآن الكريم دالة ومشيرة إلى حتمية المبالغة ورسوخها في بلاغة القرآن الكريم .

ويمكن استخلاص نتائج البحث في النقاط الآتية :

١- وردت جمــيع المــبالغات في القرآن الكريم قوية جزلة ، تحمل جمــيعها تفرُّدًا ، وتميزًا مباينــًا لكلام البشر ، فهي لا تنبو عن ذوق ، ولا يــنكرها عقل ، وكلها من المبالغات الحسنة المقبولة التــي ســلمت مــن الاضطراب ، والزيغ ، ومن الإســراف ، والزَّيف .

٢- الصيغ القياسية التي وردت لها أمثلة في القرآن الكريم هي : َفعّال ، مِفعال ، َفعول ، َفعيل ، دون َفعِل فلم يرد لها أمثلة في القرآن الكريم .

٣- الصيغ السماعية التي وردت لها أمثلة في القرآن الكريم هي : ُفعّال ، فِعِّيل ، ُفعَلة ، ُفعُّول ، ُفعُلّ ، َفيْعول ، ُفعِّيل دون َفاعول ومِفعيل إذ لم يرد لهما أمثلة في كتاب الله عز وجل .

٤- تبدو المبالغة واضحة ً في الأساليب الإنشائية سواء أكانت طلبية أم غير طلبية وكذلك الأساليب الخبرية ، فكل أسلوب ارتقى عن المستوى المألوف المباشر العادي يصلح مادة للمبالغة ُيبحث فيه عن مزيته وفضيلته والإبداع الكامن فيه .

٥- تعد المبالغة جوهر الصورة الفنية وروحها ، وُيعَدُّ عبد القاهر الجُرجاني أكثر البلاغيين الذين مزجوا المبالغة بكل فنون البيان ؛ فالصورة ــ عنده ــ مرهونة ببلوغ المنتهى فيها .

٦- المبالغة مبثوثة في المعاني كلها القريبة ، والبعيدة ، وهي كذلك منوطة بالممكن ، والممتنع ، والمستحيل ما توفرات شروط الإجادة ، وهي الصدق الفني ، وبراعة استخدام الفنان للأدوات ، وعدم صدمه لثوابت الناس ، واقتناع المتلقي بها ، وتمثلها للموقف أعظم تمثيل بحيث لا يغني عنها سواها .

٧- المبالغة في أسماء الله الحسنى منوطة بالمتعلق لا بالاسم ذاته ، لأن أسماء الله ثابتة لا زيادة فيها ولا نقصان .

٨- لا زالت المبالغة في القرآن الكريم تحمل طرافتها وجدتها ، وهي كذلك أبدًا ، فلا هي قريبة الوضوح ، مكشوفة لكل قارئ ، ولا هي ُملغِزة معضلة ، بل هي تكشف نفسها بعد بذل جهدٍ قليلٍ من القارئ ليدرك جمالها ورونقها ، وما كان ليتم هذا للمتلقي إلا بعد إحداث التفاعل الوثيق بين النظم المعجز والجهد الذي يبذله لفهم التنزيل وإدراك مغزى التأويل .

٩- قيمة المبالغة ، ولفتها الفني منوط ـ دائمًا ـ بالفكرة والأسلوب وجودة التصوير ، فالمبالغة ممزوجة بخصائص اللغة أبدًا ، بينما قد تضمحل علاقتها ـ مثلاً ـ بمناسبة النزول .

١٠- ليست طرائق المبالغة بصيغها وأساليبها وصورها تزيدًا في التعبير ؛ لأنها ليست مجرد تنويع للأسلوب ، وتزيين له ، بقدر ما هي متغلغلة في مضمون الحدث ، مُترسِّخة في جوهر المعنى ، متآزرة مع جمال الصورة بكشف أبعادها وبيان مناط إعجازها .